

حَفِيقَةُ الْجِنِّ فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ

لِلشَّهِيدِ سَيِّدِ قُطْبٍ

أَعَدَّهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَقَدَّمَ لَهُ
عُفَاةُ عَبْدِ الْمُنَافِقِ الطَّيْبِي

دار الفضيحة

دَارُ الْفَضِيلَةِ

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّصْدِيرِ

الإدارة، القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي.
كلية البنات - مصر الجديدة - ت. فاكس ٦٦٤٤٤٤
المكتب، ٧ شارع الجمهورية - طابدين - القاهرة - ت. ٢٩٠٩٢٣١
الإمارات، دبي - ديرة - ص.ب. ١٥٧٦٥ ت. ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٤١٢٧٦

جميع الحقوق محفوظة للنَّاشِر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسينات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،
وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ..

وبعد :

إن هذا الكتاب الذي بين أيدينا من خيرة الكتب التي تناولت الجن وبيان
مؤمنهم وكافرهم واتصالهم بالإنسان وتلبسهم به وطريقة الخلاص من
صرعهم ومسهم وبيان ما ينجي من شرورهم وهذا الكتاب من تحف
الشهيد/ سيد قطب رحمه الله ..

أما عملي في الكتاب :

فقد قمت باستقصاء كل ما كتبه سيد قطب رحمه الله في الظلال عن
الجن وطرق التحصن من شرورهم ، كما قمت بتبويب الكتاب ليسهل على
القارئ بيان ما تحمله فقراته .. كما خرجت الأحاديث التي ساقها سيد
قطب رحمه الله مستشهداً بها في كتابه وبيّنت صحتها .

علاءة عبد الرحمن الطيبي

تتمتع

للمسألة الأولى من كتابي «الرياضة» حيثما كنت في حمة ران
 من راندة تلك الرياضات من ران ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك
 من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع

الرياضات

في الرياضات من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك
 من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك
 من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك

في الرياضات من راندة في حمة الموضع في الرياضات

في الرياضات من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك
 من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك
 من راندة في حمة الموضع في الرياضات ، كما رأيت في هذا الموضع ، انما كانت تلك

في الرياضات من راندة في حمة الموضع في الرياضات

نبذة من حياة سيد قطب رحمه الله

هو سيد بن قطب بن إبراهيم ، ولد سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م وتوفي سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٦ م : مفكر إسلامي مصري ، من مواليد قرية « موشا » في أسيوط ، تخرج في كلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م وعمل في جريدة الأهرام ، وكتب في مجلتي « الرسالة » و« الثقافة » وعُيِّنَ مُدَرِّساً للعربية ، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف ، ثم « مراقباً فنياً » للوزارة ، وأوفد في بعثة لدراسة « برامج التعليم » في أمريكا ١٩٤٨ - ١٩٥١ ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنجليز ، وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الإسلامية ، وبنى على هذا استقالته ١٩٥٣ م - العام الثاني للثورة ، وانضم إلى الإخوان المسلمين ، فترأس قسم نشر تحرير جريدتهم ١٩٥٣ م - ١٩٥٤ م وسُجِنَ معهم ، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه ، إلى أن صدر الأمر بإعدامه ، فأعدم ، قال خالد محيي الدين - أحد أقطاب الثورة المصرية - فيما كتب عنه : كان سيد قطب قبل الثورة من أكثر المفكرين الإسلاميين وضوحاً ، ومن العجيب أنه انقلب - بعد قيام الثورة - ناقماً متمرداً على كل ما يحدث حوله ، لا يراه إلا جاهلية مظلمة .

وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة ، منها : « النقد الأدبي أصوله ومنهاجه » و« العدالة الاجتماعية في الإسلام » و« التصوير الفني في القرآن » و« مشاهد القيامة في القرآن » و« كتب وشخصيات » و« أشواك » و« الإسلام ومشكلات الحضارة » و« السلام العالمي والإسلام » و« المستقبل لهذا الدين » و« في ظلال القرآن » و« معالم في الطريق » إلخ .

ولما وصل خبر استشهاده إلى المغرب أقيمت على روحه صلاة الغائب وأصدر أبو بكر القادري عدداً خاصاً به من مجلة « الإيمان » ولما كانت النكسة - أو النكبة - عام ١٩٦٧ م قال علّال الفاسي : ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب .

حقيقة وجود الجن في التصور الإسلامي

هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقاً اسمه الجن ، مخلوق من النار ، لقول إبليس في الحديث عن آدم : ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾^(١) وإبليس من الجن لقول الله تعالى : ﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾^(٢) فأصله من أصل الجن .

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر ، منها خلقته من نار ، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس - وهو من الجن - : ﴿إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم﴾^(٣).

وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس ، للقول السابق : ﴿إنه يراكم هو وقييله ...﴾ .

وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لا ندرى أين - لقوله تعالى لآدم وإبليس معاً : ﴿امبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾^(٤).

والجن الذين سُخِّرُوا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزودين بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾^(٥).

وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم - غير عباد الله - للنصوص السابقة ، ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين : ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين﴾^(٦).

وغير هذا من النصوص المماثلة ، ولكننا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأى أداة .

(٣) الأعراف : ٢٧ .

(٢) الكهف : ٥٠ .

(١) الأعراف : ١٢ .

(٦) ص : ٨٢ - ٨٣ .

(٥) الجن : ٨ - ٩ .

(٤) البقرة : ٣٦ .

وأنة يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به .

وأنة قابل للهدى وللضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمَسْلُومِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١١﴾ ، وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الإيمان ، بعدما وجدوه في نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .

وهذا هو القدر المستيقن في أمر الجن ، وهو حسبنا ، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .

عبادة مشركى العرب للجن

قال تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ .

لقد كان بعض مشركى العرب يعبدون الجن .. وهم لا يعرفون من هم الجن ؟ ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيَّدت شبر انسياق في انحرافها إلى أى مدى ، وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التى بدأت صغيرة لا تكاد تلاحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل .. دين التوحيد الذى جاء به إبراهيم عليه السلام فى هذه المنطقة .. ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد .. ولا بد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيراً .. ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع .. الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله .. وهم من خلقه سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ !

ولقد عرفت الوثنيات المتعددة في الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة - تشبه فكرة الشياطين - وخافوا هذه الكائنات - سواء كانت أرواحاً شريرة أو ذوات شريرة - وَقَدَّمُوا لَهَا الْقَرَّاءِينَ اتقاءً لشرها ، ثم عبدوها !
والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التي وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، في صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله .. سبحانه ..
والسياق القرآني يواجههم بسخف هذا الاعتقاد ، يواجههم بكلمة واحدة : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ ..

وهي لفظة واحدة ، ولكنها تكفي للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذي خلقهم فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية ؟ ولم تكن تلك وحدها دعواهم ، فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف ، بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

و« خَرَقُوا » أى : اختلقوا .. وفي لفظها جرس خاص وظل خاص ، يرسم مشهد الطلوع بالفرية التي تخرق وتنشق !

خرقوا له بنين : عند اليهود : عزيز ، وعند النصارى : المسيح ، وخرقوا له بنات ، عند المشركين : الملائكة وقد زعموا أنهم إناث .. ولا يدرى أحد طبعاً لماذا هم إناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم .. فكلها : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

﴿ مَسْبُحَاتُ وَعَالِي عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ !

ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم في هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة :

﴿ يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾

وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿^(١)

إن الذى يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلف ؟! والخلف إنما هو امتداد الفانين وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون !

ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر .. أن يكون للكائن صاحبة ، أنثى من جنسه .. فكيف يكون لله ولد وليست له صاحبة وهو سبحانه فرد أحد ، ليس كمثلته شيء ، فأنى يكون النسل بلا تزواج ؟! وهى حقيقة ، ولكنها تواجه مستواهم التصورى ، وتخطبهم بالأمثلة القرية من حياتهم ومشاهداتهم ! ويتكىء السياق فى مواجهتهم على حقيقة « الخلق » لنفى كل ظل للشرك ، فالخلق لا يكون أبداً شريكاً للخالق ، وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق : كما يواجههم بعلم الله المطلق الذى لا تقابله منهم إلا أوهام وظنون : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .. ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾

وكما واجههم السياق القرآنى بحقيقة أن الله « خلق كل شيء » ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن الله سبحانه بنين وبنات ، أو أن له شركاء الجن وهو خلقهم فإنه يتكىء على هذه الحقيقة مرة أخرى ، لتقرير أن الذى يعبد وينضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء فلا إله إذن غيره ، ولا رب إذن سواه :

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ ^(١)﴾

أسطورة الصلة بين الله وبين الجن

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ ۖ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۝ ^(١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ

(١) الأنعام : ١٠٢ .

شَهِدُوا ۖ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ
 اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
 مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ
 ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ
 نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا
 يُصِفُونَ ﴿١﴾

يوجه الله سبحانه وتعالى في هذا الشوط الأخير من السورة الرسول
 (صلى الله عليه وسلم) أن يناقش معهم تلك الأسطورة التي يزعمون فيها
 أن الملائكة بنات الله ، والأسطورة الأخرى التي يزعمون فيها أن بينه سبحانه
 وبين الجنة نسبا ، وأن يواجههم بما كانوا يقولونه قبل أن تأتيتهم هذه الرسالة
 من تنبيههم أن يرسل الله فيهم رسولا ، ومن أنهم على استعداد للهدى لو جاءهم
 رسول ، وكيف كفروا عندما جاءهم الرسول .. وتُختَم السورة بتسجيل وعد
 الله لرسله أنهم هم الغالبون ، وبتنزيه الله سبحانه عما يصفون ، والتوجه بالحمد
 لله رب العالمين .

إنه يخاصر أسطورتهم في كل مسارها ، ويحاجهم بمنطقهم ومنطق بيئتهم
 التي يعيشون فيها ، وهم كانوا يؤثرون البنين على البنات ، ويعدون ولادة الأنثى
 محنة ، ويعدون الأنثى مخلوقاً أقل رتبة من الذكر ، ثم هم الذين يدعون أن
 الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله !

فهو هنا يستطرد معهم وفق منطقهم ، ويأخذهم به ليروا مدى تهافت
 الأسطورة وسخفها حتى بمقاييسهم الشائعة :

﴿ فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ؟

أإذا كان الإناث أقل رتبة كما يدعون ، جعلوا لربهم البنات واستأثروا هم
 بالبنين ؟ أو اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ إن هذا أو ذاك لا يستقيم !

فاسألهم عن هذا الزعم المتهافت السقيم .

واستفتهم كذلك عن منشأ الأسطورة كلها ، من أين جاءهم علم أن الملائكة إناث ؟ وهل هم شهدوا خلقهم فعرفوا جنسهم ؟

﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ؟

ويستعرض نص مقولتهم المفتراء الكاذبة على الله :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِبْكَهِمْ لَيَقُولُونَ • وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ..

وهم كاذبون حتى يحكم عرفهم الشائع ومنطقهم الجارى فى اصطفاء البنين على البنات ، فكيف اصطفى الله البنات على البنين ؟

﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ !

ويعجب من حكمهم الذى ينسون فيه منطقهم الجارى :

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ • أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ..

ومن أين تستمدون السند والدليل على الحكم المزعوم ؟

﴿ أَمْ لَكُمْ مُلْكٌ مُبِينٌ • فَأَتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ..

والأسطورة الأخرى ، أسطورة الصلة بينه سبحانه وبين الجنة :

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ..

وكانوا يزعمون أن الملائكة هم بنات الله يزعمهم ولدتهم له الجنة اودلك هو النسب والقراية ! والجن تعلم أنها خلق من خلق الله ، وأنها محضرة يوم القيامة بإذن الله ، وما هكذا تكون معاملة النسب والصهر !

وهنا ينزه ذاته سبحانه عن هذا الإفك المتهافت :

﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

شياطين الإنس والجن

قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

شَيْطَانٍ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ

الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١﴾

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ كالذى قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يُعَلِّقُونَ إيمانهم بمجىء الخوارق ، وَيُغْرِضُونَ عن دلائل الهدى وموحياته في الكون والنفس ، لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية .

كالذى قدرناه في شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبي عدو ، هم شياطين الإنس والجن ، وقدرنا أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوه به ويغروهم بخرب الرسل وحرب الهدى ، وقدرنا أن تصفى إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقتربوا ما يقتربونه من العداوة للرسل وللحق ، ومن الضلال والفساد في الأرض .

كل ذلك إنما جرى بقدر الله ، وفق مشيئته ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولمضت مشيئته بغير هذا كله ، ولجرى قدره بغير هذا الذى كان ، فليس شيء من هذا كله بالمصادفة ، وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

فإذا تقرر أن هذا الذى يجرى في الأرض من المعركة الناشبة التى لا تهدأ بين الرسل والحق الذى معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم .. إذا تقرر أن هذا الذى يجرى في الأرض إنما يجرى بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغى أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجرى في الأرض ، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذى يجرى والقدرة التى وراءه ..

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ

إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. ﴾

بإرادتنا وتقديرنا ، جعلنا لكل نبي عدوًّا .. هذا العدو هو شياطين الإنس والجن .. والشيطنة وهى التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن ، وكما أن الذى يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطاناً ، فكذلك الذى يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية .. وقد

يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضاً إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه !
وقد ورد : « الكلب الأسود شيطان » (١).

هؤلاء الشياطين من الإنس والجن الذين قدر الله أن يكونوا عدواً لكل نبي ، يخدع بعضهم بعضاً بالقول المزخرف ، الذي يوحيه بعضهم إلى بعض - ومن معاني الوحي التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر - ويغر بعضهم بعضاً ، ويعرض بعضهم بعضاً على التمرد والغواية والشر والمعصية .

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا في هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبي ، وللحق الذي معه ، وللمؤمنين به ، معروفة بملك أن يراها الناس في كل زمان .

فأما شياطين الجن - والجن كله - فهم غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به من عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو .. ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء .. نقول من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره في الحدود التي قررها ، فأما أولئك الذين يتترسون « بالعلم » لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن ، فلا ندري علام يرتكنون ؟ إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، في هذا الكوكب الأرضي ! كما أن علمهم هذا لا « يعلم » ماذا في الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن « يفترضه » أن نوع الحياة الموجود في الأرض يمكن أو لا يمكن أن يوجد في بعض الكواكب والنجوم .. وهذا لا يمكن أن ينفي - حتى لو تأكدت الفروض - أن أنواعاً أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمّر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا « العلم » عنها شيئاً ! فمن التحكم والتبجح أن يفي أحد باسم « العلم » وجود هذه العوالم الحية الأخرى .

(١) أخرجه مسلم (الصلاة) ب ٥ رقم ٢٦٥ ، والساق (القبلة) ب ٧ وأبو داود (الصلاة) ب ١١٠ ، والترمذي (٣٣٨) ، وابن ماجه (٩٥٢) ، وأحمد ١٤٩/٥ و ١٥١ و ١٥٦ و ١٦٠ ، والبيهقي ٢٧٤/٢ ، وابن خزيمة (٨٣٠) و (٨٣١) وأبو عوانة ٤٧/٢ ، و « الكثر » (١٩٢١٤) و (١٩٢٣٦) و (١٩٢٣٧) و (١٩٢٣٨) ، والقرطبي ٦٧/٦ ، وابن أبي شيبة ٢٨١/١ ، وابن عساكر ٧٨/٣ ، وابن عدي ٣٩٢/١ و ٢٣٥٦/٦ .

وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، والذي يتشيطان بعضه ويتمحض للشر والغواية - كإبليس وذريته - كما يتشيطان بعض الإنس .. من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم عنه إلا ما جاءنا الخير الصادق به عن الله سبحانه وعن رسول الله (ﷺ) .

ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار ، وأنه مزود بالقدره على الحياة فى الأرض وفى باطن الأرض وفى خارج الأرض أيضاً ، وأنه يملك الحركة فى هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر ، وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين ، وأنه يرى بنى آدم وبنو آدم لا يرونه - فى هيئته الأصلية - وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بنى الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها ، وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى وإذا غفل برز فوسوس له ! وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف ، وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ، ويحاسب ، ويجازى بالجنة والنار كالجنس الإنسانى ، وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يدون خلقاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة !

وفى هذه الآية نعرف أن الله سبحانه قد جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن .

ولقد كان الله سبحانه قادراً لو شاء ألا يفعلوا شيئاً من هذا .. ألا يتمردوا ، وألا يتمحضوا للشر ، وألا يعادوا الأنبياء ، وألا يؤذوا المؤمنين ، وألا يضلوا الناس عن سبيل الله .. كان الله سبحانه قادراً أن يقهرهم قهراً على الهدى ، أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ، أو أن يعجزهم عن التصدى للأنبياء والحق والمؤمنين به .. ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار ، وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء الله - بالقدر الذى تقضى به مشيئته وينجرى به قدره - وقدّر أن يتلى أوليائه بأذى أعدائه ، كما يتلى أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدره الذى أعطاهم إياه ، فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدر الله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ .

فما الذى يخلص لنا من هذه القرارات ؟

يخلص لنا ابتداء : أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ، ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء .. هم شياطين ! شياطين من الإنس ومن الجن . وأنهم يؤدون جميعاً - شياطين الإنس والجن - وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله .

ويخلص لنا ثانياً : أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرّون على شيء من عداة الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرّة ذاتية فيهم ، إنما هم في قبضة الله ، وهو يتلى بهم أوليائه لأمر يريده من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذى هم عليه أمناء ، فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء ، وكف عنهم هؤلاء الأعداء ، وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى وراء ما قدر الله ، وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ، وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم :

﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ .

ويخلص لنا ثالثاً : أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا - فهو إنما يتلى بهم في القدر الذى تركه لهم من الاختيار والقدرّة - وأن يدعمهم يؤذون أوليائه فترة من الزمان - فهو إنما يتلى أوليائه كذلك ليظهر : أيصبرون ؟ أيبثون على ما معهم من الحق بينما الباطل يتنفش عليهم ويستطيل ؟ أيخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السرّاء وعلى الضراء سواء ، وفي المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شيء من هذا الذى كان !

ويخلص لنا رابعاً : هوان الشياطين من الإنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم ، فما يستطيعون بقوة ذاتية لهم ، وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم ، والمؤمن الذى يعلم أن ربه هو الذى يُقدّر ، وهو الذى يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ، مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدعى ، ومن هنا هذا التوجيه العلوى لرسول الله الكريم :

﴿فذرهم وما يفترون﴾ .

دعهم وافتراءهم ، فأننا من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم .

وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين ، وابتلاء المؤمنين ؛ لقد قدر الله أن يكون هذا العداء ، وأن يكون هذا الإيحاء ، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع - لحكمة أخرى :

﴿ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَلَيَرْضَوهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾^(١)

أى لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء لقلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . فهؤلاء يحرصون مهمهم كله في الدنيا ، وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي ، وينالون بالأذى أتباع كل نبي ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل ، فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخداع ، ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد ، في ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء .

وهذا أمر أرادته الله كذلك وجرى به قدره ، لما وراءه من التمحيص والتجربة ، ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ، وبستحق جزاءه بالعدل والقسطاس .

ثم لتصلح الحياة بالدفع ، ويتميز الحق بالمفاصلة ، ويتمحض الخير بالصبر ، ويحمل الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة ، وليجرى الأمر كله وفق مشيئة الله ، أمر أعدائه ، وأمر أوليائه على السواء ؛ إنها مشيئة الله ، والله يفعل ما يشاء .

والمشهد الذى يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية ، وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى ، ومشيئة الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة ؛ هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة :

(١) الأنعام : ١١٣ .

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون ؛ شياطين الإنس ، والجن تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مُقرَّرة ؛ هي عدااء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه ، خطة مقررة فيها وسائلها ﴿يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية ، وفي الوقت ذاته يغوى بعضهم بعضاً ! وهى ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله .. إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ، ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً ، ولكن يزين بعضهم لبعض عدااء الحق وحربه والمضى في المعركة معه طويلاً !

ولكن هذا الكيد كله ليس طليقاً - إنه محاط به بمشيئة الله وقدره - لا يقدر الشياطين على شيء منه إلا بالقدر الذى يشاء الله وينفذه بقدره ، ومن هنا يبدو هذا الكيد - على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه - مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط ، ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع - كما يجب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر ، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله ، وقدرتهم محدودة بقدر الله ، وما يضررون أولياء الله بشيء إلا بما أَرَادَهُ الله - في حدود الابتلاء - ومرد الأمر كله إلى الله .

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعى وعى أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها ، ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتديبرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين ، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدره القاهرة والقدر النافذ ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود ، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريد أو لا يريد الشياطين ! وأن يمضوا في طريقهم ينون الحق في واقع الخلق ، بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم ، أما عداوة الشياطين ، وكيد الشياطين ، فليدعوها للمشيئة المحيطة والقدر النافذ .

﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ .

استمتاع الجن بالإنس والإنس بالجن

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا
يَمْعَشَرُ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ
مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي
أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١).

بعد أن عرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وخداعاً وإضلالاً ، ويقف بعضهم بمساندة بعض عدواً لكل نبي ، ويوحى بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين في ما شرع الله لهم من الحلال والحرام ؛ يعرضهم في مشهد شاخص حى ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب ، فائض بالحياة التى تذخر بها مشاهد القيامة فى القرآن : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ... ﴾ .

إن المشهد يبدأ معروضاً فى المستقبل ، يوم يحشرهم جميعاً .. ولكنه يستحيل واقعاً للسامع يترأى له مواجهة ، وذلك بحذف لفظة واحدة فى العبارة ، فتقدير الكلام ، ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ فيقول : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ .. ﴾ ولكن حذف كلمة - يقول - ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ، ويحيل السياق من مستقبل يُنْتَظَر إلى واقع يُنْظَر ! وذلك من خصائص التصوير القرآنى العجيب .

فلنتابع المشهد الشاخص المعروض :

(١) الأنعام : ١٢٨ - ١٢٩ .

﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ !

استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحاءكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم .. وهو إخبار لا يقصد به الإخبار فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة - جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذى نكاد نلمحه فى المشهد المعروض ! - ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التى تتجمع قرائنها الحية فى هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء ، ولكن الأغرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون :

﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ﴾ !

وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة فى هؤلاء الأتباع ، كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم فى دار الخداع .. لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار ، ومن المكابرة والاستهتار ، ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال .. كانت تستهويهم وتعبث بهم ، وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس فى عالم الإنس ! وهؤلاء الأغرار المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعاً متبادلاً ، وأنهم كانوا يتمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون :

﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ !

ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة ، حتى حان الأجل ، الذى يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذى أمهلهم إليه ، وأنهم كانوا فى قبضته فى أثناء ذلك المتاع : ﴿ وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ﴾ !

عند ذلك يجرى الحكم الفاصل ، بالجزاء العادل :

﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ .

فالنار مثابة ومأوى ، والمثوى للإقامة ، وهى إقامة الدوام .. ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ لتبقى صورة المشيئة الطليقة هى المسيطرة على التصور الاعتقادى ، فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور ، والمشيئة لا تنحبس ولا

تنقيد ، ولا في مقرراتها هي : ﴿ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ..

يمضى قدره بالناس عن حكمة وعن علم ، ينفرد بهما الحكيم العليم .
وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد ، يتحول السياق للتعقيب على شطر
المشهد المنتهى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤْتِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

يمثل هذا الذي قام بين الجن والإنس من ولاء ، ويمثل ما انتهى إليه هذا
الولاء من مصير .. يمثل ذلك ، وعلى قاعدته ، نولى بعض الظالمين بعضاً بما
كانوا يكسبون ، نجعل بعضهم أولياء بعض ، نحكم ما بينهم من تشابه في الطبع
والحقيقة ، ونحكم ما بينهم من اتفاق في الوجهة والهدف ، ونحكم ما ينتظرهم
من وحدة في المصير .

وهو تقرير عام أبعد مدى من حدود المناسبة التي كانت حاضرة ، إنه
يتناول طبيعة الولاء بين الشياطين من الإنس والجن عامة ، فإن الظالمين - وهم
الذين يشركون بالله في صورة من الصور - يتجمع بعضهم إلى بعض في
مواجهة الحق والهدى ، ويعين بعضهم بعضاً في عدا كل نبي والمؤمنين به ،
إنهم فضلاً على أنهم من طينة واحدة - مهما اختلفت الأشكال - هم كذلك
أصحاب مصلحة واحدة ، تقوم على اغتصاب حق الربوبية على الناس ؛ كما
تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله .

ونحن نراهم في كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضاً - على ما
يهمهم من خلافات وصراع على المصالح - إذا كانت المعركة مع دين الله ومع
أولياء الله .. فبحكم ما بينهم من اتفاق في الطينة ، واتفاق في الهدف يقوم
ذلك الولاء .. وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم في الآخرة
على نحو ما رأينا في المشهد المعروض !

وإننا لنشهد في هذه الفترة - ومنذ قرون كثيرة - تجمعاً ضخماً للشياطين
الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيعيين - على اختلاف هذه
المعسكرات فيما بينها - ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى سحق طلائع
حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها .

وهو تجمع رهيب فعلاً ، تجتمع له خيرة عشرات القرون في حرب الإسلام ، مع القوى المادية والثقافية ، مع الأجهزة المُسَخَّرَة في المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة .. وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه : ﴿ وكذلك نُؤَلِّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ .

إرسال الرسل للجن والإنس

قال تعالى :

﴿ يَمْعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ الْقَرِيَّاتِكُمْ
رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (١)

وهو سؤال للتقرير والتسجيل ، فإله سبحانه يعلم ما كان من أمرهم في الحياة الدنيا ، والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء في الآخرة . والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس .. فهل أرسل الله إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر ، ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به ، كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ
(٢١) قَالُوا يَا قَوْمِ مَنْآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ

(١) الأنعام : ١٣٠ .

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ
 ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ
 ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ
 فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ
 فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾

فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة ، والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه ، والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه !

وعلى أية حال ، فقد أدرك المستولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه ، إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ، كما أنه للتأنيب والتوبيخ ، فأخذوا في الاعتراف الكامل ، وَسَجَّلُوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه : ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ ، وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول : ﴿ وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ . وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا ، فقد غرَّتهم هذه الحياة ، وقادهم الغرور إلى الكفر ، ثم ما هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ، حيث لا تجدى المكابرة والإنكار .. فأى مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق ، الذى لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

دخول كفرة الجن والإنس النار

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣٢ .

رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَإِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 قَالُوا أَضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾
 قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
 فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا
 جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَنَاهُمْ
 عَذَابًا ضَعِيفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

ها نحن أولاء أمام مشهد هؤلاء الذين افتروا على الله كذباً أو كذبوا
 بآياته ، وقد جاءتهم رسل ربهم من الملائكة يتوفونهم ، ويقبضون أرواحهم ،
 فدار بين هؤلاء وهؤلاء حوار :

﴿ قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ ﴾

أين دعاويكم التي افتريت على الله ؟ وأين آلهتكم التي توليت في الدنيا ،
 وفتنت بها عما جاءكم من الله على لسان الرسل ؟ أين هي الآن في اللحظة الحاسمة
 التي تسلب منكم فيها الحياة ، فلا تجدون لكم عاصماً من الموت يؤخركم ساعة
 عن الميقات الذي أجله الله ؟

ويكون الجواب هو الجواب الوحيد ، الذي لا معدى عنه ، ولا مغالطة

فيه :

﴿ قالوا ضلوا عنا ! ﴾

غابوا عما وناهوا ! فلا نحن نعرف لهم مقراً ، ولا هم يسلكون إلينا
 طريقاً ! فما أضيع عبادة لا تهتدى إليهم آلهتهم ، ولا تسعفهم في مثل هذه
 اللحظة الحاسمة ! وما أخيب آلهة لا تهتدى إلى عبادها ، في مثل هذا الأوان !
 ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ .

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ... ﴾ .

انضموا إلى زملائكم وأولياكم من الجن والإنس ؛ وهنا في النار ؛ أليس إبليس هو الذى عصى ربه ؟ وهو الذى أخرج آدم من الجنة وزوجه ، وهو الذى أغوى من أغوى من أبنائه ، وهو الذى أوعده الله أن يكون هو ومن أغواهم في النار ؟ فادخلوا إذن جميعاً ؛ ادخلوا سابقين ولاحقين ؛ فكلكم أولياء ، وكلكم سواء !

ولقد كانت هذه الأمم والجماعات والفرق في الدنيا من الولاء بحيث يتبع آخرها أولها ، ويملى متبوعها لتابعها ، فلننظر اليوم كيف تكون الأحقاد بينها ، وكيف يكون التنازع فيها :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا !

فما أبأسها نهاية تلك التى يلعن فيها الابن أباه ، ويتنكر فيها الولي لمولاه !

للجن قلوب وعيون وآذان

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ^(١) .

إن هؤلاء الكثيرين من الجن والإنس مخلوقون لجهنم ! و هم مهيتون لها !
فما بالهم كذلك ؟

هنالك اعتباران :

الاعتبار الأول : أنه مكشوف لعلم الله الأزلى أن هؤلاء الخلق صائرون إلى جهنم ، وهذا لا يحتاج إلى بروز العمل الذى يستحقون به جهنم إلى عالم

(١) الأعراف : ١٧٩ .

الواقع الفعلي لهم ، فعلم الله سبحانه شامل محيط غير متوقف على زمان ولا على حركة ينشأ بعدها الفعل في عالم العباد الحادث .

والاعتبار الثاني : أن هذا العلم الأزلى - الذى لا يتعلق بزمان ولا حركة في عالم العباد الحادث - ليس هو الذى يدفع هذه الخلائق إلى الضلال الذى تستحق به جهنم ، إنما هم كما تنص الآية :

﴿ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ .

فهم لم يفتحوا القلوب التى أعطوها ليفقهوا - ودلائل الإيمان والهدى حاضرة في الوجود وفي الرسائل تدركها القلوب المفتوحة والبصائر المكشوفة - وهم لم يفتحوا أعينهم ليصروا آيات الله الكونية ، ولم يفتحوا آذانهم ليسمعوا آيات الله المتلوة . لقد غَطَّلُوا هذه الأجهزة التى وهبها ولم يستخدموها .. لقد عاشوا غافلين لا يتدبرون :

﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

والذين يغفلون عما حوَّضهم من آيات الله في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والعبر فلا يرون فيها يد الله .. أولئك كالأنعام بل هم أضل .. فللأنعام استعدادات فطرية تهديها ، أما الجن والإنس فقد زودوا بالقلب الواعى والعين المبصرة والأذن الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتها وإيحاءاتها فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية ، ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! نجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم بامستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا ، فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حصب جهنم منذ كانوا !



الجن جند من جنود سليمان

قال تعالى :

﴿ وَخَشَرَ

لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾^(١)

فهذا هو موكب سليمان عليه السلام محشود محشور ، يتألف من الجن والإنس والطير ، والإنس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن ، وهو أنه خلقهم من مارج من نار ، أى من لهب متموج من النار ، وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم ﴿ إنه يراكم هو وقيله من حيث لا ترونهم ﴾ - الكلام عن إبليس أو الشيطان وإبليس من الجن - وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشعر عادة والإيحاء لهم بالمعصية - ولا ندرى كيف - وأن منهم طائفة آمنت برسول الله (ﷺ) ولم يرهم هو أو يعرف منهم إيمانهم ولكن أخبره الله بذلك إخباراً : ﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قرآنا عجبا ۝ يهتدى إلى الرشـد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾^(٢) ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان عليه السلام يبنون له المحاريب والتمائيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويفوصون له في البحر ، ويأتمرون بأمره بإذن الله ، ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير .

ونقول : إن الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الإنس ، وكما أنه لم يكن كل أهل الأرض من الإنس جنـداً لسليمان عليه السلام إذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات - فكذا لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مستخرين له ، إنما كانت طائفة من كل أمة على السواء .

ونستند في مسألة الجن إلى أن إبليس وذريته من الجن كما قال القرآن ..

(٢) الجن : ١ - ٢ .

(١) النمل : ١٧ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ ۝١٠﴾ .

وقال في سورة « الناس » : ﴿ الَّذِي يُمْسِكُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۚ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝١١﴾ .. وهؤلاء كانوا يزاولون الإغواء والشر والوسوسة للبشر في عهد سليمان ، وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره ، وهو نبي يدعو إلى الهدى ، فالمفهوم إذن أن طائفة من الجن هي التي كانت مسخرة له .

ونستند في مسألة الطير إلى أن سليمان عليه السلام حين تفقد الطير علم بغيبة الهدد ، ولو كانت جميع الطيور مُسَخَّرَةً له ، محشورة في موكبه ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلاً عن ملايين الطير ، ولما قال : مالى لا أرى الهدد ؟ فهو إذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سُخِّرَ لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة في ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه ، ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدد موهوب إدراكاً خاصاً ليس من نوع إدراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة ، ولا بد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سُخِّرَتْ لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور ، فإن نوع الإدراك الذى ظهر من ذلك الهدد الخاص في مستوى العقلاء الأذكىاء الأتقياء من الناس !

حُشِرَ لسليمان عليه السلام جنوده من الجن والإنس والطير ، وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره ﴿ فَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَتَفَرَّقُونَ ﴾ حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى ، فهو حشد عسكري منظم ، يطلق عليه اصطلاح الجنود إشارة إلى الحشد والتنظيم .

لقد سار الموكب ، موكب سليمان من الجن والإنس والطير ، في ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطواته ، حتى إذا أتوا على واد التمل قالت غملة :

(١) الكهف : ٥٠ . (٢) الناس : ٥ - ٦ .

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا ﴾

مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

﴿ ١٨ ﴾ فَنَبِّئْهُمْ صَاحِبَكُمِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ

نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا

تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١٩ ﴾

أدخلني برحمتك .. فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين ، رحمة من الله ، تدارك العبد فتوقه إلى العمل الصالح ، فيسلك في عداد الصالحين ، يعلم هذا ، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين في هذا الرعيل ، يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير ، غير آمن مكر الله حتى بعد أن اصطفاه ، خائفاً أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به شكره .. وكذلك تكون الحساسية المرفهة بتقوى الله وخشيته والتشوق إلى رضاه ورحمته في اللحظة التي تتجلى فيها نعمته كما تجلت ، والتملة تقول وسليمان عليه السلام يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه .

قوة الذي عنده علم من الكتاب

أقوى من قدرة الجن

﴿ قَالَ ﴾

قال تعالى :

﴿ ٢٨ ﴾ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَاءَ إِلَيْكَ بِهِ . قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي

عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿ ٢٩ ﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَاءَ إِلَيْكَ

بِهِ . قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا

مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۖ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿١﴾

ترى ما الذى قصد إليه سليمان عليه السلام من استحضار عرشها قبل مجيئها مُسَلِّمَةً مع قومها ؟ نرجح أن هذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر في قلب الملكة وتقودها إلى الإيمان بالله ، والإذعان لدعوته .

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هذه ، وكان يجلس للحكم والقضاء من الصباح إلى الظهر فيما يروى ، فاستطول سليمان عليه السلام هذه الفترة واستبطأها - فيما يبدو - فإذا الذى عنده علم الكتاب يعرض أن يأتي به في غمضة عين قبل أن يرتد إليه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذى عنده علم منه ، إنما نفهم أنه رجل مؤمن على اتصال بالله ، موهوب سراً من الله يستمد به من القوة الكبرى التى لا تقف لها الحواجز والأبعاد ، وهو أمر يشاهد أحياناً على أيدي بعض المتصلين ، ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف البشر في حياتهم العادية ، وهذا أقصى ما يقال في الدائرة المأمونة التى لا تخرج إلى عالم الأساطير والخرافات !

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : ﴿عنده علم من الكتاب﴾ فقال بعضهم : إنه التوراة . وقال بعضهم : إنه كان يعرف اسم الله الأعظم . وقال بعضهم غير هذا وذاك ، وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن . والأمر أيسر من هذا كله حين ننظر إليه بمنظار الواقع ، فكم في هذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيه من قوى لا نستخدمها . وكم في النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى إليها ، فحيثما أراد الله هدى من يريد إلى أحد هذه الأسرار وإلى واحدة من هذه القوى فحادث الخارقة التى لا تقع في مألوف الحياة ، وجرت بإذن الله وتديره وتسخره ، حيث لا يملك من لم يرد الله أن يجربها على يديه أن يجربها .

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفسه مهياة بسبب ما عنده

من العلم ، أن تتصل ببعض الأسرار والقوى الكونية التي تتم بها تلك الخارقة التي تمت على يده ، لأن ما عنده من علم الكتاب وصل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفسه عليه السلام^(١) ونحن نرجح أنه غيره ، فلو كان هو لأظهره السياق باسمه ، ولما أخفاه ، والقصة عنه ، ولا داعي لإخفاء اسمه فيها عند هذا الموقف الباهر . وبعضهم قال : إن اسمه آصف ابن برخيا ولا دليل عليه .

الجن تعمل بين يدي سليمان

قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَاهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ

(١) والذي أراه صواباً أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام والذي يؤكد ما ذهبنا إليه ، أنه لو لم يكن سليمان عليه السلام أقوى من الجن لما استطاع أن يحكمهم بدليل أنه كان يستخدمهم طوعاً أو كرهاً بحيث أنه لما مات ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فتبين بعد ذلك أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب المهين ، إذن كانت هذه الرقعة تذكيراً للجن واستعراض عضلات حيث أراد أن يريهم ضعفهم أمامه فطلب منهم - أي من العفاريت - من يستطيع منكم أن يأتي بعرش ملكة صبا فقال أكثر العفاريت قوة : أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك هذا الذي أنت جالس فيه للحكم أي قبل انقضاءه ، فقال له : هذا كل ما تستطيع ؟ فأنا بقدره الله وبما أعطاني من كتاب أننى أملك الجن والإنس والطير وتسخيرهم فيما أشاء أعطاني المقدرة على إحضار هذا العرش بغمضة عين فلما أحضره سليمان وبهت العفريت من هذه القوة قال سليمان عليه السلام لما رآه مستقراً عنده : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلون أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ ...

إذن : هذا امتحان من الله سبحانه وتعالى ، وابتلاء ضخم مخيف ، ليرى هل يشكر على هذه النعمة ، أم يأخذها الكبر والعظمة والتمرد والعصيان فيكفر .

قال الشيخ حسين مخلوف في « صفوة البيان » ص ٤٨٤ : قيل : هو سليمان عليه السلام نفسه ، قال ذلك للعفريت للدلالة على شرف العلم وفضله وأن هذه الكرامة كانت بسببه . ١ هـ .

وقال محمد سليمان الأشقر في « زبدة التفسير » ص ٤٩٨ : قيل هو سليمان عليه السلام نفسه ، كأن سليمان عليه السلام استبطأ ما قاله العفريت ، فقال له تحقيراً لمقدرته أنا آتيتك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، والمراد بالطرف تحريك الأجفان وفتحها للظفر ﴿ فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلون أشكر أم أكفر ﴾ أي ليختبرني أشكر بذلك واعتترف أنه من فضله أم أكفر بترك الشكر وعدم القيام به ؟ ٢ هـ .

تف. ط
رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ
وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ
الشَّكُورُ ﴿١٣﴾

وتسخير الريح لسليمان عليه السلام تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ضلال
الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات - وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم
تذكر شيئاً عنها - والتخرج من الخوض في تلك الروايات أولى ، والاكتفاء
بالنص القرآني أسلم ، مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعدها ، و منه يستفاد
أن الله سخر الريح لسليمان عليه السلام ، وجعل غدوها أى توجهها غادية إلى بقعة
معينة - ذكر في سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة - يستغرق شهراً ، ورواحها أى
انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك ، وفق مصلحة تحصل من
غدوها ورواحها ، يدركها سليمان عليه السلام ويحققها بأمر الله ، ولا نملك
أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل في أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق .

﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ .

والقطر النحاس ، وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة
كإلانة الحديد لداود عليه السلام ، وقد يكون ذلك بأن فَجَّرَ الله له عيناً بركانية من
النحاس المذاب من الأرض ، أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح
قابلاً للصب والطرق ، وهو فضل من الله كبير .

﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ .

وكذلك سَخَّرَ له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه ، والجن كل
مستور لا يراه البشر ، وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم
شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم ، وهو يذكر هنا أن الله سخر طائفة منهم لنبية
سليمان عليه السلام فمن عصى منهم ناله عذاب الله :

﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ .

ولعل هذا التعقيب - قبل الانتهاء من قصة التسخير - يذكر على هذا النحو لبيان خضوع الجن لله ، وكان بعض المشركين يعبدونهم من دون الله ، وهم مثلهم معرضون للعقاب عندما يزيفون عن أمر الله .

وهم مسخرون لسليمان عليه السلام :

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ .

والمحاريب من أماكن العبادة ، و التماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره ، والجواري جمع جارية وهي الحوض الذي يجبى فيه الماء ، وقد كانت الجن تصنع لسليمان عليه السلام جفاناً كبيرة للطعام تشبه الجواري ، وتصنع له قدوراً ضخمة للطبخ راسية لضخامتها ، وهذه كلها نماذج مما سخر الله الجن لسليمان عليه السلام لتقوم له به حيث شاء بإذن الله ، وكلها أمور خارقة لا سبيل إلى تصورها أو تعليلها إلا بأنها خارقة من صنع الله ، وهذا هو تفسيرها الواضح الوحيد .

ويختم هذا بتوجيه الخطاب إلى آل داود : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ . سخرنا لكم هذا وذلك في شخص داود وشخص سليمان عليهما السلام فاعملوا يا آل داود شكراً لله ، لا للتباهي والتعالي بما سخره الله ، والعمل الصالح شكر لله كبير .

الجن لا تعلم الغيب

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ (١) .

وقد روى أنه كان متكئاً على عصاه حين وافاه أجله ، والجن تروح وتجيء مسخرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد ، فلم تدرك أنه مات ، حتى

(١) سبأ : ١٤ .

جاءت دابة الأرض ، قيل إنها الأرضة ، التي تتغذى بالأخشاب ، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراة فظيعة ، في الأماكن التي تعيش فيها ، وفي صعيد مصرى قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تبقى على المادة الخشبية ولا تذر ، فلما نخرت عصا سليمان عليه السلام لم تحمله فخرَّ على الأرض ، وحينئذ فقط علمت الجن موته ، وعندئذ ﴿ تبين الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ .

فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس ، هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله ، وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ، وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد !

عبادة الناس للجن

قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِنَّا كَرَّمْنَاكُمْ
يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

فهؤلاء هم الملائكة الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، أو يتخذونهم عنده شفعاء ، هؤلاء هم يواجهون بهم ، فيسبحون الله تنزيهاً له من هذا الادعاء ، ويتبرءون من عبادة القوم لهم ، فكأنما هذه العبادة كانت باطلاً أصلاً ، وكأنما لم تقع ولم تكن لها حقيقة ، إنما هم يتولون الشيطان ، إما بعبادته والتوجه إليه ، وإما بطاعته في اتخاذ شركاء من دون الله ، وهم حين عبدوا الملائكة إنما كانوا يعبدون الشيطان ! ذلك إلى أن عبادة الجن عرفت بين العرب ، وكان منهم فريق يتوجه إلى الجن بالعبادة أو الاستعانة : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ، ومن هنا تجيء علاقة قصة

(١) بآ : ٤٠ - ٤١ .

سليمان عليه السلام والجن بالقضايا والموضوعات التي تعالجها السورة ، على طريقة
سياقة القصص في القرآن الكريم .

القرين من الجن

قال تعالى :

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ

قُرْنَاءَ فَرَيَسُوا لَهُمْ مَآبِينَ أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلَفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ

الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ

كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ اضْلاَنَا مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُم مَاتَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢﴾

وقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ

بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ

قَرِينًا ﴿٣﴾

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِي ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ

عَيْنِي ﴿٢٤﴾ مَتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

(١) فصلت : ٢٥ . (٢) فصلت : ٢٩ . (٣) النساء : ٣٨ .

ءَاخِرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ
وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾

يقول الله سبحانه للملكين الحافظين : السائق والشهيد : ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ .. وذكر هذه النعوت يزيد في حرج الموقف وشدته فهو دلالة غضب الجبار القهار في الموقف العصيب الرهيب ، وهي نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار ، عنيد ، مناع للخير ، معتد ، مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر . وتنتهي بتوكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد : ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ بياناً لمكانه من جهنم التي بدأ الأمر بإلقائه فيها .

عندئذ يفرغُ قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحباً له وقريناً : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ، وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذي قدم السُّجَلَات ، ربما كان هو الشيطان المُوَكَّل به ليغويه ، وهو يتبرأ من إطفائه ، ويقرر أنه وجده ضالاً من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفي القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطاني من القرين الإنساني على هذا النحو .

هنا يحىء القول الفصل ، فينبى كل قول : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ ما يدل القول لَدَيَّ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .. فالمقام ليس مقام اختصاص ، وقد سبق الوعيد محددًا جزاء كل عمل ، وكل شيء مسجل لا يبدل ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل ، ولا يضل أحد ، فالجأزى هو الحكم العدل .

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سِئْلًا فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضًا لِّمَا يَشَاءُ الشَّيْطَانُ

فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ
أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

والعشى كلال البصر عن الرؤية ، وغالباً ما يكون عند مواجهة الضوء
الساطع الذى لا تملك العين أن تحدق فيه ، أو عند دخول الظلام و كلال العين
الضعيفة عن التبين خلاله ، وقد يكون ذلك لمرض خاص ، والمقصود هنا هو
العماية والإعراض عن تذكر الرحمن واستشعار وجوده ورقابته في الضمير .
﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن يُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ .

وقد قضت مشيئة الله في خلقه الإنسان ذلك ، واقتضت أنه حين يغفل
قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه ، فيلزمه ، ويصبح له قرين سوء
يوسوس له ، ويزين له السوء ، وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن
هذه المشيئة الكلية الثابتة ، التى تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب ،
كما قضاه الله في علمه .

ووظيفة قرناء السوء من الشياطين أن يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ،
بينما هؤلاء يحسبون أنهم مهتدون :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ .

وهذا أسوأ ما يصنعه قرين بقرين ، أن يصدّه عن السبيل الواحدة
الناقصة ، ثم لا يدعه يفيق ، أو يتبين الضلال فيثوب ، إنما يوهمه أنه سائر
في الطريق القاصد القويم ! حتى يصطدم بالمصير الأليم .

والتعبير بالفعل المضارع : ﴿ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾ .. ﴿ وَيَحْسَبُونَ ﴾ .. بصور
العملية قائمة مستمرة معروضة للأنظار يراها الآخرون ، ولا يراها الضالون
السائرون إلى الفخ وهم لا يشعرون .

ثم تفاجئهم النهاية وهم سادرون :

﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ ١

وهكذا نتقل في ومضة من هذه الدنيا إلى الآخرة ، ويطوى شريط الحياة السادرة ، ويصل العمى - الذين يعيشون عن ذكر الرحمن - إلى نهاية المطاف فجأة على غير انتظار ، هنا يفيقون كما يفيق الخمور ، ويفتحون أعينهم بعد العشى والكلال ، وينظر الواحد منهم إلى قرين السوء الذى زَيَّن له الضلال ، وأوممه أنه الهدى ! وقاده في طريق الهلاك ، وهو يلوح له بالسلامة ينظر إليه في حنق يقول : ﴿ ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ﴾ ! ياليت لم يكن بيننا لقاء ، على هذا البعد السحيق !

ويعقب القرآن على حكاية قول القرين الهالك للقرين بقوله :

﴿ فبئس القرين ﴾ ..!

وتسمع كلمة التبتيس الساحقة لهذا وذاك عند إسدال الستار على الجميع :

﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ !
فالعذاب كامل لا تخففه الشركة ، ولا يتقاسمه الشركاء فيهن !

القرين من الإنس

قال تعالى :

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذْنَا لَمَدِينُونَ ٥٣ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ ٥٤ فَأَطْلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ ٥٧ ﴾ .^(١)

(١) الصافات : ٥٠ - ٥٧ .

يقص أحدهم على إخوانه طرفاً مما وقع له ! لقد كان صاحبه وقرينه ذاك يكذب باليوم الآخر ، ويسائله في دهشة : أهو من المصدقين بأنهم مبعوثون فمحاسبون بعد إذ هم تراب وعظام ؟

وبينما هو ماضٍ في قصته يعرضها في سمره مع إخوانه ، يخطر له أن يتفقد صاحبه وقرينه ذاك ليعرف مصيره ، وهو يعرف بطبيعة الحال أنه قد صار إلى الجحيم ، فيتطلع ويدعو لإخوانه إلى التطلع معه :

﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ .

عندئذ يتوجه إلى قرينه الذي وجدته في وسط الجحيم ، يتوجه إليه ليقول له : يا هذا ، لقد كدت توردني موارد الردى بوسوستك ، لولا أن الله قد أنعم على فعصمني من الاستماع إليك .

كل كافر يلحق كفره الجن والإنس في النار

﴿ وَالَّذِي قَالَ : قَالَ تَعَالَى :

لَوْلَدَيْهِ أَفٍّ لَكُمْ مَا أَتَعَدَّ إِنِّي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلْتَكِمَانِ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِيرِينَ ﴿١٨﴾ .

فانوالدان مؤمنان ، والولد العاق يجحد برُّهُمَا أول ما يجحد ، فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح : ﴿ أَفٍّ لَكُمْ ﴾ ، ثم يجحد الآخرة بالحجة الواهية : ﴿ أَتَعَدَّ إِنِّي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أى ذهبوا ولم يعد منهم أحد ، والساعة مقدرة إلى أجلها ، والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا ، ولم يقل أحد إنه تجزئة ، يبعث جيل مضى في عهد جيل يأتي ، فليست

لعبة وليست عبثاً ، إنما هو الحساب الختامي للرحلة كلها بعد انتهائها !
والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان بما يقوله الولد العاق
لربه ولهما ، ويرتعش حسهما لهذا التهجم والتطاول ، ويهتفان به : ﴿ وهما
يستغيثان الله ويلك آمن إن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، ويبدو في حكاية قولهما الفرع
من هول ما يسمعان ، بينما هو يصر على كفره ، ويلج في جحوده : ﴿ فيقول
ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

هنا يعاجله الله بمصره المحتوم :

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن
والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ .

والقول الذى حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذى ينال الجاحدين
المكذبين ، وهم كثير ، خلت بهم القرون من الجن والإنس ، حسب وعيد
الله الصادق الذى لا يخلف ولا يتخلف : ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ ، وآية
خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا ، ثم خسارة الرضوان والنعيم
في الآخرة ، ثم العذاب الذى يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

مقالة النفر من الجن

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ
(٢١) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
(٢٢) يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ الْآلِمِ (٢٣) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ

فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

هذه قصة النفر من الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله وَيُشِيرُونَهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالنَّجَاةِ ، ويحذرونهم الإعراض والضلال ، سياقة الخبر في هذا المجال ، بهذه الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يتمثل في قولهم : ﴿ أَنْصَتُوا ﴾ عندما طرق أسماعهم ، يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه ، كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء القرآن لهم في الأصل ، وهو إيقاع مؤثر ولاشك ، يلفت هذه القلوب لفتة عنيفة عميقة ، وفي الوقت ذاته تبيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى عليه السلام وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن ويغفل عنها البشر ، ولا يخفى ما في هذه اللفتة من إبحاء عميق متفق مع ما جاء في السورة .

كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلائله على قدرة الله الظاهرة في خلق السموات والأرض ، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث ، وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون . وبمناسبة البعث يعرض مشهداً من مشاهد القيامة ﴿ وَيَوْمَ يَعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴾ .

ومقالة النفر من الجن - مع خشوعهم عند سماع القرآن - تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحي ، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن ، والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه ، والإيمان بالآخرة وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال ، والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد ، والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى ، وهي الأسس التي تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التي تعالجها في سائر أشواطها كلها جاءت على لسان النفر من الجن ، من عالم آخر غير عالم الإنسان .

وينحس قبل أن نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة .

إن ذكر القرآن لحادث صرّف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي (ﷺ) وحكاية ما قالوا وما فعلوا - هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث ، ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربى المنطوق كما يلفظه رسول الله (ﷺ) ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللکفران ، مستعدون للهدى وللضلال ، وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو تأكيد لهذه الحقيقة ، فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة التى يقررها الله سبحانه ثبوتاً .

ولكننا نحاول إيضاح هذه الحقيقة فى التصور الإنسانى .

إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كتباً وصفة وأثراً ، ونحن نعيش فى أحضان هذه القوى والأسرار ، نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير ، وفى كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق تارة بدواتها ، وتارة بصفاتها ، وتارة بمجرد آثارها فى الوجود من حولنا .

ونحن ما نزال فى أول الطريق ، طريق المعرفة لهذا الكون ، الذى نعيش نحن وآبائنا وأجدادنا ويعيش أبناؤنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة ؛ هذا الكوكب الأرضى الذى لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر فى حجم الكون أو وزنه !

وما عرفناه اليوم - ونحن فى أول الطريق - يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن ، ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شىء من أسرار الذرة التى نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنوناً ، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً !

ونحن نعرف ونكشف فى حدود طاقتنا البشرية ، المعدة للخلافة فى هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفى دائرة ما سَخَّرَهُ الله لنا ليكشف لنا عن أسرارهِ ، وليكون لنا ذلّولاً ، كيما نقوم بواجب الخلافة فى الأرض ، ولا تتعدى معرفتنا وكشوفنا فى طبيعتها وفى مداها - مهما امتد بنا الأجل -

أى بالبشرية - ومهما سُحِّر لنا من قوى الكون وكُشِّف لنا من أسرارهِ - لا تتعدى تلك الدائرة ، دائرة ما نحتاجه للخلافة في هذه الأرض ، وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيراً ، وسنعرف كثيراً ، وستفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته ، ممَّا قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة ، وفي حدود قول الله سبحانه : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قليلاً بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقَيُّومه ، وفي حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله : ﴿ ولو أُنْمِا في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ .

فليس لنا والحالة هذه أن نجزم بوجود شيء أو نفيه ، وبتصوره أو عدم تصوره ، من عالم الغيب المجهول ، ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة ، ونحن لم ندرك بعد كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلاً على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا ! وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلية في برنامج ما يُكشَف لنا عنه أصلاً ، وأسرار ليست داخلية في برنامج ما يُكشَف لنا عن كنهه ، فلا يُكشَف لنا إلا عن صفته أو أثره أو مجرد وجوده ، لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة الخلافة في الأرض .

فإذا كَشَفَ الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى ، عن طريق كلامه - لا عن طريق تجاربنا ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً - فسبيلنا في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر والتسليم ، نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها ، لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة لم يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة ، وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار !

ومن هذا النص القرآني ، ومن نصوص سورة الجن ، والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه ، ومن النصوص الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن ، ومن

الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث ، نستطيع أن ندرك بعض الحقائق عن الجن ، ولا زيادة .

روايات حادث استماع الجن للقرآن

فأما الحادث الذى تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة ثبتت أصحها :

أخرج البخارى بإسناده عن مسدد ، ومسلم عن شيبان بن فروخ عن أبى عوانة ، وروى الإمام أحمد فى مسنده قال : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضى ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال :

« ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث ، فاضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يتفنون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك نفر الذى توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا : يا قومنا ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجياً ﴾ يهتدى إلى الرشداً فآمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴿ ، وأنزل الله على نبيه (ﷺ) : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ ، وإنما أوحى إليه قول الجن » .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذى - بإسناده - عن علقمة ، قال : قلت

لابن مسعود : هل صحب النبي (ﷺ) منكم أحد ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه أحد منا ولكننا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ، أو اغتيل ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء ، فقلنا : يارسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فقال :

« أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » .

قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم » .

فقال (ﷺ) : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » .

وقال : ساق ابن إسحاق - فيما رواه ابن هشام في السيرة - خير النفر من الجن بعد خير خروج رسول الله (ﷺ) إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبي طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين في مكة ، ورد ثقيف له رداً قبيحاً ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه (ﷺ) بالحجارة ، فتوجه إلى ربه بذلك الابتهال المؤثر العميق الكريم :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

قال : ثم إن رسول الله (ﷺ) انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي ، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم - فيما

(١) أخرجه الطبري في تاريخه ٢/٣٤٥ - ٣٤٦ ، و البداية ، ٣/١٣٦ وسأني تخريجه كاملاً فيما

ذكر لى - سبعة نفر من جن نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته
وَلَوْ اِلىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فَقَصَّ اللهُ خَيْرَهُمْ
عليه (ﷺ) ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ
يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُجْزَكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١) ،
وقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ۖ ﴾ (٢) إلى آخر
القصة من خبرهم فى هذه السورة .

ويعقب ابن كثير فى التفسير على رواية ابن إسحاق بقوله : وهذا
صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ، فإن الجن
كان استماعهم فى ابتداء الإحياء ، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور ،
وخروجه (ﷺ) إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة
أو مستين كما قرره ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وهناك روايات أخرى كثيرة ، ونحن نعتد من جميع هذه الروايات الرواية
الأولى عن ابن عباس ، لأنها هى التى تتفق تماماً مع النصوص القرآنية : ﴿ قُلْ
أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، وهى قاطعة فى أن الرسول (ﷺ)
إنما علم بالحادث عن طريق الوحي ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم ، ثم إن
هذه الرواية هى الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج ، وتتفق معها فى هذه
النقطة رواية ابن إسحاق ، كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن :
﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .
وفى هذا غناء فى تحقيق الحادث .

تدبير الله فى استماع الجن لرسول الله (ﷺ)

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ۖ ﴾ (٣) .

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣١ . (٢) الجن : ١ . (٣) الأحقاف : ٢٩ .

لقد كان إذن تدبيراً من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لا مصادفة عابرة ، وكان في تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ، وأن يؤمن فزيق منهم وينجو من النار المعدة لشیاطین الجن كما هی معدة لشیاطین الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع في جسدّهم منه ، من الروعة والتأثر والرهبّة والخشوع : ﴿ فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾ ، وتلقى هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

مسارعة الجن لإنذار قومهم

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ^(١) ۖ ﴾

وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن ، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية ، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه مالا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به ، وهى حالة من امتلاء حسه بشيء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام :

﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ^(٢) ۖ ﴾

ولّوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتاباً جديداً أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى في أصوله ، فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى عليه السلام ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تشي بأنها من ذلك

(١) الأحقاف : ٢٩ . (٢) الأحقاف : ٣٠ .

النبع الذى نبع منه كتاب موسى عليه السلام ، وشهادة هؤلاء الجن البعيدين - نسبياً - عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيماء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :

﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ووقع الحق والهدى فى هذا القرآن هائل ضخيم ، لا يقف له قلب غير مطموس ، ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجافع اللئيم ، ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هى تنطق بهذه الشهادة ، وتعبّر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا فى نذارتهم لقومهم فى حماسة المقتنع المندفع ، الذى يحس أن عليه واجباً فى النذارة لابد أن يؤديه :

﴿ يٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ

ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (١١) .

فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إس وجن ، واعتبروا محمداً (ﷺ) داعياً لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له ، فنادوا قومهم : ﴿ يٰقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ﴾ .

وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما عمران الذنب والإجارة من العذاب ، فبشروا وأنذروا بهذا الذى عرفوه . ويروى ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية ، ولكن السياق يوحى بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضاً ، ونحن نرجو هذا وبخاصة الآية التالية :

﴿ وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ ۚ

أُولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١﴾

فهى تكملة طبيعية لندارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان ، فالاحتمال قوى وراجع أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة ، وأن الذى لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتى به ويوقع عليه الجزاء ، ويذيقه العذاب الأليم ، فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه ، وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالاً تيناً عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التى بعدها يحتمل كثيراً أن تكون من كلامهم ، تعجبياً من أولئك الذين لا يستجيبون لله ، حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك

حساب ولا جزاء : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزَمْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ

إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٢﴾

سورة الجن وإيقاعها الموسيقى

قال تعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا

عَجَبًا ۚ ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۚ ﴿٢﴾

وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۚ ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ

يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۚ ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنَ نقُولَ الْإِنسُ

وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالِ

مِنَ الْجِنِّ فَرَادُوهُمَ رَهَقًا ۚ ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَنَ يَبْعَثَ

اللَّهُ أَحَدًا ۚ ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِثَتْ حَرَسًا

(٢) الأحقاف : ٣٣ .

(١) الأحقاف : ٣٢ .

شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ فَمَنْ
 يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَبًا بَارِصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ
 يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ
 وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ
 اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى
 ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْصًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾
 وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ
 تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾
 وَالْوِاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْنِئَهُمْ
 فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ
 الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
 يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ
 بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

هذه السورة تُبْدِءُ الْحِسَّ - قبل أن يُنْظَرُ إلى المعاني والحقائق الواردة فيها -
 بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها ، إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ،
 قوية التنغيم ، ظاهرة الرنين ، مع صبغة من الحزن في إيقاعها ، وَمِسْخَحة من
 الأمل في تنعيمها ، وطائفة من الشجى في رنينها ، يساند هذه الظاهرة ويتناسق
 معها صور السورة وظلالها ومشاهدها ، ثم روح الإيحاء فيها ، وبخاصة في
 الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول

الله (ﷺ) هذا الخطاب الذى يثير العطف على شخص الرسول فى قلب المستمع لهذه السورة ، عطفاً مصحوباً بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شئ فى أمر هذه الدعوة إلاّ البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصرًا وَأَقلُّ عددًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسى للحقائق التى وردت فى حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد ، وهى حقائق ذات ثقل ووزن فى الحس والتصور ، والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنه الشجى المتمشية فى إيقاع السورة الموسيقية !

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ توقع فى الحس هذا الذى وصفناه من المسحة الغالبة عليها .

التصور الإسلامى عن حقيقة الجن

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التى تبيدهُ الجسُّ ، إلى موضوع سورة الجن ومعانيها واتجاهها فإننا نجدُها حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التى كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون فى أمرها رجماً لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحياناً أن محمداً (ﷺ) يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ، فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التى يجحدونها ويجادلون فيها ، ويتكذِّب دعواهم فى استمداد محمد (ﷺ) من الجن شيئاً ، والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد (ﷺ) فهالهم وراعهم ومَسَّهُم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا ، فانطلقوا يتحدثون فى روعة المأخوذ ، ووهلة المشدود ، عن هذا الحادث العظيم ، الذى شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب ، وترك آثاره ونتائجه فى الكون كله ! وهى شهادة لها قيمتها فى النفس البشرية حتماً .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن فى نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفى نفوس الناس جميعاً من قبل ومن بعد ، ووضع حقيقة هذا الخلق المغيب فى موضعها بلا غلو ولا اعتساف ، فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطاناً فى الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بوادٍ أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه ، ثم بات آمناً ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبئون بما يتنبئون ، وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسباً ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة !

والاعتقاد فى الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً فى كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا !!

وبينما كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم
وتصوراتهم عن الجن في القديم ، وما تزال ؛ نجد في الصف الآخر اليوم
منكرين لوجود الجن أصلاً ، يصفون أى حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه
حديث خرافة .

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة
الجن ، وَيُصَحِّحُ التصورات العامة عنهم ، وَيُجَرِّدُ القلوب من خوفها
وخضوعها لسلطانهم الموهوم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلاً وهم كما يصفون أنفسهم هنا : ﴿ وَأَنَا
مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدٍ ﴾ ، ومنهم الضالون المضلون
ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ
شَطَطاً . وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَن نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ .

وهم قابلون للهداية من الضلال ، مستعدون لإدراك القرآن سماعاً وفهماً
وتأثراً : ﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا
عَجَباً . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نَّشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

وأنهم قابلون بخلقتهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر
فيهم : ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا
وَلَا رَهْقًا . وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا
رَشْدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ .

وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ
رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

وأنهم لا يعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسماء : ﴿ وَأَنَا لَمُسَنَا السَّمَاءُ
فوجدناها مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ
يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَ أَرِيدُ مِنِّي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ
بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾ .

وأنهم لا صهر بينهم وبين الله سبحانه وتعالى ولا نسب : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا
مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ .

وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَن نَعْجَزَ

الله في الأرض ولن نعجزه قرباً ﴿١﴾ .

وهذا الذي ذُكر في هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان عليه السلام - وهم من الجن - وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلَّهُم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خُرِ تينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ ^(١) .

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله - وهو من الجن - غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ ، وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئي للبشر ، في حين أن كيان الإنس مرئي للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قرَّره في سورة الرحمن عن المادة التي منها كيان الجن والمادة التي منها كيان الإنسان في قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار ﴾ ^(٢) يعطى صورة عن ذلك الخلق المغيب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ، وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدفع المسلم عنه واضحاً دقيقاً متحرراً من الوهم والخرافة ، ومن التعسف في الإنكار الجامع كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنونونه عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون ، أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقاً ، فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم ، وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشوف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

(١) سبأ : ١٤ . (٢) الرحمن : ١٤ - ١٥ .

ألأنهم عرفوا كل القوى المكنونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟
إن أحداً لا يدعى هذه الدعوى ، فهناك قوى مكنونة تكشف كل يوم ، وهي
كانت مجهولة بالأمس ، والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية ، وهم
يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة
المجهول في هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدعون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ولا
هذه فإنهم يتحدثون عن الكهرباء بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تخطيط
الذرة ، ولكن أحداً منهم لم ير الكهرباء قط ، وليس في معاملهم من الأجهزة
ما يفرزون به كهربياً من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !

فقيم إذن هذا الجزم بنفى وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون
وقواه وسكانه من الضالة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟
ألأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن
طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن
الكريم ، لا التبجح بنفى وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل !
ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبئه من المصدر الوحيد الموثوق بصحته ، وعدم
معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه ، فما يقوله هو كلمة
الفصل في مثل هذا الموضوع .

ما اشترك به الجن والإنس

سورة الجن تساهم مساهمة كبيرة في إنشاء التصور الإسلامي عن حقيقة
الآلوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه
الخلائق المنوعة .

وفي مقالة الجن ما يشهد بوحداية الله ، ونفى الصاحبة والولد ، وإثبات
الجزاء في الآخرة ، وأن أحداً من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت
من يديه ويفوته ، فلا يلاقى جزاءه العادل ، وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما
يوجه للرسول (ﷺ) من الخطاب : ﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به
أحداً ﴾ ، ﴿ قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ ،

وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول (ﷺ) من خطاب : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ .

والغيب موكول لله وحده ، لا تعرفه الجن : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها : ﴿ قُلْ إِن أَدْرَى أَقْرَبُ مَا تَوَعَّدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَئِي أَمْدًا ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۚ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ .

أما العباد والعبيد في هذا الكون ، فقد عَلَّمَتْنَا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ، ولو اختلف تكوينها ، كالمشاركات التي بين الجن والإنس ، مما حكته السورة وحكاها القرآن في مواضع أخرى ، فالإنسان ليس بمعزل - حتى في هذه الأرض - عن الخلائق الأخرى ، وبينه وبينها اتصال وتفاعل في صورة من الصور ، وهذه العزلة التي يحسها الإنسان بنجسه - بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية - لا وجود لها في طبيعة الكون ولا في واقعه ، وأخرى بهذا التصور أن يفسح في شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار ، قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالفعل من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحياناً أن يشعر !!

ثم إن هناك ارتباطاً بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله في العباد : ﴿ وَأَلَّوْا اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنُفْتِنَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ ، وهذه الحقيقة تؤلف جانباً من التصور الإسلامي للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله .

تكرار حادث استماع الجن للقرآن

أما هذا الحادث الذي أشارت إليه السورة ، حادث استماع نفر من الجن للقرآن ، فتختلف بشأنه الروايات ؛ قال البيهقي في كتابه : « دلائل النبوة » : بسنده لابن عباس قال :

« ما قرأ رسول الله (ﷺ) على الجن ولا رآهم ، انطلق رسول الله (ﷺ) في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتفنون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله (ﷺ) وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجياً ﴾ يهدي إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحداً ﴿ ، وأنزل الله على نبيه (ﷺ) : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ ، وإنما أوحى إليه قول الجن (١) .

فهذه رواية .

وهناك رواية أخرى أخرجها مسلم في « صحيحه » عن عامر قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله (ﷺ) ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله (ﷺ) ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله (ﷺ)

(١) أخرجه البخاري ومسلم كما عزاه لـ « الظلال » ، ٣٧٢٤/٦ ، وأخرجه الحاكم ٥٠٣/٢ ، والبيهقي

ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقيل : استطير ؟ اغتيل ؟
قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو ، جاء من قبل حراء ،
قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات
بها قوم ، فقال :

« أتاني داعي الجن ، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » .

قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « كل
عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو
روثة علف لدوابكم » ، قال رسول الله (ﷺ) : « فلا تستنجوا بهما فإنهما
طعام إخوانكم »^(١).

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله
(ﷺ) ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق ، فنضرب عن هذه وأمثالها ، ومن
الروائين الواردتين في الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول : إن رسول الله
(ﷺ) لم يعرف بحضور النفر من الجن ، وأن ابن مسعود يقول : إنهم
استدعوه ، ويوفق البيهقي بين الروائين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن إسحاق قال :

« ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله (ﷺ) من الأذى
مالم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله (ﷺ) إلى
الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا
منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

قال ابن إسحاق : فحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي
قال : لما انتهى رسول الله (ﷺ) إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم
يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : ياليل بن عمرو بن عمير ،
ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ، وعند أحدهم
امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله (ﷺ) فدعاهم إلى

(١) أخرجه مسلم (الصلاة) ١٥٠ ، والترمذي (٣٢٥٨) ، والبيهقي ١١/١ و ١٠٩ ، ود نصب
الراية ٢٣٩/١ ، وابن كثير ٢٧٥/٧ ، والفتح ١٧٢/٧ و ٦٧٠ ، والإتحاف ،
٤٦٢/٤ ، والطبري ٢١/٢٦ ، و شرح معاني الآثار ١٢٤/١ و البداية ٥٧/١ .

الله ، وَكَلَّمَهُمْ بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أى يمزقها) إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً لكن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك ، فقام رسول الله (ﷺ) من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم - فيما ذكر لي - :

« إذا فعلتم ما فعلتم فاكنموا عني » ، وكره رسول الله (ﷺ) أن يبلغ قومه عنه ، فيذئروهم (أى يحرقوهم) ذلك عليه !

فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (أى بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حيلة من عنب (أى طاقة من قضبان الكرم) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ، فلما اطمأن رسول الله (ﷺ) قال - فيما ذكر لي - :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »^(١).

قال : فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمتها ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : عداس ، فقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل

(١) أخرجه القرطبي ٢/٢١١ ، و « ظلال القرآن » ٦/٣٧٢٥ ، والطبري في تاريخه ٢/٣٤٥ - ٣٤٦ ، و « البداية » ٣/١٣٦ ، و « جمع الحوامع » (٩٧٤٣) و « الكنز » (٣٦١٣) و (٣٧٥٦) و (٥١٢٠) .

عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله (ﷺ) ثم قال له : كل ، فلما وضع رسول الله (ﷺ) فيه يده قال : « بسم الله » ثم أكل ، فنظر عداس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله (ﷺ) : « ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ » قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى ، فقال له رسول الله (ﷺ) : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ » فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : « ذاك أخى ، كان نبياً وأنا نبي » فأكب عداس على رسول الله (ﷺ) يقبل رأسه ويديه وقدميه ، قال : يقول ابنا ربعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قالوا له : ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدى ما فى الأرض شئ خير من هذا ، لقد أخبرنى بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالوا له : ويحك يا عداس ! لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

قال : ثم إن رسول الله (ﷺ) انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلى ، فمرَّ به نفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم - فيما ذكر لى - سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقصَّ الله خبرهم عليه (ﷺ) قال الله عز وجل :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُجِزُّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ .. ﴾ إلى آخر القصة من خبرهم فى هذه السورة .

وقد علّق ابن كثير فى تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال : هذا صحيح ، ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر ، فإن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإحياء كما دل عليه حديث ابن عباس

المذكور ، وخروجه (ﷺ) إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره ، والله أعلم .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول (ﷺ) من الطائف ، مكسور خاطر من التصرف اللئيم العنيد الذى واجهه به كبراء ثقيف ، وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجيباً حقاً من هذا الجانب ، أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم ، وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية ما فيه .
وأياً كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولاشك عظيم ، عظيم في دلالاته وفيما انطوى عليه ، وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين .

موقف الجن من القرآن

قال تعالى :

﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ... ﴾^(١) الآيات .

والنفر ما بين الثلاثة والتسعة كالرھط ، وقيل كانوا سبعة .
وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبي (ﷺ) بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه كانت بوحي من الله سبحانه إليه ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول (ﷺ) ولكن الله أطلعه عليه ، وقد تكون هذه هي المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبي فيها على الجن عن علم وقصد ، ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته (ﷺ) سورة الرحمن أخرجه الترمذى بإسناده عن جابر قال : خرج رسول الله (ﷺ) على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد »^(٢) .

(١) الجن : ١ .
(٢) أخرجه الترمذى (٣٢٩١) ، و الدر المنثور : ١٤٠/٦ ، وابن كثير ٤٦٣/٧ ، والقرطبي ١٥١/١٧ ، و خلال القرآن : ٣٧٢٦/٦ .

وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود التي سبقت الإشارة إليها في المقدمة .
ولابد أن هذه المرة التي تحكيها هذه السورة هي التي تحكيها آيات
الأحقاف :

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ۝۱۱۱﴾

فإن هذه الآيات - كسورة الجن - تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن
للجن ، مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ،
وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثير امتلأ بها كيانهم كله وفاض ، فانطلقوا
إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعا ، ولا تملك عليه
صبرا ، قبل أن تفيضه على الآخرين في هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة
والانفعال ، وبالجد والاحتفال في نفس الأوان ، وهي حالة من يفاجأ أول
مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعا إلى نقل ما يحسه
إلى نفوس الآخرين في حماسة واندفاع ، وفي جد كذلك واحتفال !

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عَجَبًا ۝۱۱۱﴾ .

فأول ما بداهم منه أنه « عجب » غير مألوف ، وأنه يثير الدهش في
القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واعٍ وقلب مفتوح ،

ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غلابة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب .. عجب ! فعلاً ، يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !

﴿ يهـدى إلى الرشد ﴾ .

وهذه هى الصفة الثانية البارزة كذلك فى هذا القرآن ، والتي أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها فى قلوبهم ، وكلمة الرشد فى ذاتها ذات دلالة واسعة المدى ، فهو يهـدى إلى الهدى والحق والصواب ، ولكن كلمة الرشد تلقى ظلاً آخر وراء هذا كله ، ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب ، ظل الإدراك الذاتى البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشئ حالة ذاتية فى النفس تهتدى بها إلى الخير والصواب .

والقرآن يهـدى إلى الرشد بما ينشئ فى القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ، واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى ، كما يهـدى إلى الرشد بمنهجه التنظيمى للحياة وتصريفها ، هذا المنهج الذى لم تبلغ البشرية فى تاريخها كله ، فى ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ما بلغته فى ظله أفراداً وجماعات ، قلوباً ومجتمعات ، أخلاقاً فردية ومعاملات اجتماعية على السواء .

﴿ فآمنا به ﴾ .

وهى الاستجابة المستقيمة لسماع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته ؛ يعرضها الوحي على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون ، وفى الوقت ذاته ينسبونه إلى الجن ، فيقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون ، وكلها صفات للجن فيها تأثير ، وهؤلاء هم الجن مبهورين بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثر ، منفعلين أشد الانفعال ، لا يملكون أنفسهم من الهزة التى ترج كياناتهم رجاً ، ثم يعرفون الحق ، فيستجيبون له مذعنين معلنين هذا الإذعان : ﴿ فآمنا به ﴾ غير منكرين لما مسّ نفوسهم منه ولا معاندين ، كما كان المشركون يفعلون !

إيمان الجن بالله

قال تعالى :

﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ .

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح ، غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة ، الإيمان الذى ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التى يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ .

والجد : الحظ والنصيب ، وهو القدر والمقام ، وهو العظمة والسلطان ، وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام ، والمعنى الإجمالى منها فى الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله سبحانه وبِعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة - أى زوجة - وولداً بنين أو بنات !

وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءته من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية فى تسبيح لله وتنزيهه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرية أن تفخر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لو كان يشبه أن يكون ! فهى قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهى فى تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، ممن زعموا أن الله ولداً سبحانه فى أية صورة وفى أى تصوير !

﴿ وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً * وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ .

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعدما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقاً ولا صواباً ، وأن قائله إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ، وهم يعلنون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحداً يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن ، فهم يستعظمون ويستهلون أن يجروا أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهاؤهم : إن الله صاحبة وولداً ، وإن

له شريكاً صدقوهم ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبداً ، وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله ، هو الذى أهملهم للإيمان ، فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ، إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتذوقت وعرفت ، وكان منهم هذا اختلاف المدوى : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قرآنا عجبا ۝ يهتدى إلى الرشـد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ۝ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ۝ ﴾ .

وهذه الانتفاضة من مَسِّ الحق ، جديرة بأن تبه قلوباً كثيرة مخدوعة في كبراء قريش ، وزعمهم أن الله شركاء أو صاحبة وولداً ، وأن تثير في هذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد (ﷺ) وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء في مقالات السفهاء من الكبراء ! وقد كان هذا كله مقصوداً بذكر هذه الحقيقة ، وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ، وحلقة من حلقات العلاج البطيء لعقائيل الجاهلية وتصوراتها في تلك القلوب ، التى كان الكثير منها غراً بريئاً ، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين !

الجن ليس لهم سلطان على من يحتصم بالله

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ

مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ ﴾ (١)

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفاً في الجاهلية - وما يزال متعارفاً إلى اليوم في بيئات كثيرة - من أن للجن سلطاناً على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضرر ، وأنهم محكمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجو ، إلى آخر هذه التصورات ، مما كان يقتضى القوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش ، أن يستعيذوا بسيد الوادى من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

(١) الجن : ٦ .

والشيطان مُسَلِّطٌ عَلَى قُلُوبِ بَنِي آدَمَ - إِلَّا مَنْ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ فَهُوَ فِي نَجْوَى
منه - وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه ، فهو له عدو ، إنما يرهقه ويؤذيه ..
وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ
يَعُودُونَ بَرَجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فزادوهم رهقاً ﴾ ، ولعل هذا الرهق هو الضلال
والقلق والحيرة التي تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله
منه ويستعيزون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس
من العداة القديم !

والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله ، طمعاً في نفع ، أو دفعاً لضرر ،
لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة ، وهذا هو الرهق في
أسوأ صوره ؛ الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة !
إن كل شيء سوى الله وكل أحد متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ،
فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ، وعاد يغير اتجاهه
كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه ، والله وحده هو الباقي الذي لا يزول ،
الحى الذي لا يموت ، الدائم الذي لا يتغير ، فمن اتجه إليه اتجه إلى المستقر
لثابت الذي لا يزول ولا يحول .

دعوة الجن لقومهم

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ ﴾ (١)

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون
برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون - كما أنكم تظنون - أن الله
لن يبعث رسولاً ، ولكن ها هو ذا قد بعث رسولاً ، بهذا القرآن الذى يهدى
إلى الرشـد ، أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب - كما ظننتم -
فلم يعملوا للآخرة شيئاً ، وكذبوا ما وعدهم الرسول (ﷺ) من أمرها ،
لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها .

(١) الجن : ٧ .

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله في خلق البشر ، فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة ، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسول ، يستجيشون في نفوسهم عنصر الخير ، ويستنقذون ما في فطرتهم من استعداد للهدى ، فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحداً .

هذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل ، فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه النشأة التي لا تستكمل حسابها في الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتعلق بتنسيق الوجود يعلمه ولا نعلمه ، فجعل البعث في الآخرة لتستوفي الخلائق حسابها ، وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا ، فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحداً من الناس ، فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكأله ، سبحانه وتعالى .

وهؤلاء النفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن في حكايتهم عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

حراسة السماء من استراق الجن السمع

يمضى الجن في حكاية مالفوه وما عرفوه من شأن هذه الرسائل في جنبات الكون ، وفي أرجاء الوجود ، وفي أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر :

﴿ وَأَنَا الْمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْثًا حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهْبًا ۝٨ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِيعِ ۖ فَمَنْ
يَسْتَمِيعَ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهْبًا بِأَرْصَدًا ۝٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ

يَمَن فِي الْأَرْضِ أَمَّا أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١١﴾

وهذه الوقائع التي حكها القرآن عن الجن من قوسم ، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة - ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى عليه السلام كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شئون الخلائق في الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذاً لمشيئة الله وقدره ، ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلقوا الأرض من رسول ، أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئاً ، ولا ضرورة لتقصيها ، إنما هي جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا النفر من الجن يقول : إن استراق السمع لم يعد ممكناً ، وإنهم حين حاولوه الآن - وهو ما يعبرون عنه بلمس السماء - وجدوا الطريق إليه محروساً بحرس شديد ، يرجمهم بالشهب ، فتقضى عليهم وتقتل من توجه إليه منهم ، ويعلنون أنهم لا يدرون شيئاً عن الغيب المقدر للبشر : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌ أُرِيدُ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه ، فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر ، فهم متروكون للضلال ، أم قدر لهم الرشد - وهو الهداية - وقد جعلوها مقابلة للشر ، فهي الخير ، وعاقبتها هي الخير .

وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئاً ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة ، وتمحض الغيب لله ، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به ، وأعلن القرآن تحرير العقل البشري من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرحم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئاً ، وليس لنا مصدر سواهما نستقى منه عن هذا الغيب شيئاً ، ولو علم الله أن في تفصيله خيراً لنا لفعل ، وإذا لم يفعل فمحاولتنا نحن في هذا الاتجاه عبث ، ولا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا المشمرة شيئاً !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كوني ، قبل البعثة وبعدها ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره بنظريات تخطئ وتصيب ، وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا يدخل في موضوعنا ، ولا يجمع أن ترجم الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها ، وأن تنطلق هذه الشهب رجوماً وغير رجوم وفق مشيئة الله الذي يجرى عليها القانون !

فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل ، وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره ؛ فسبب هذا عندهم أنهم يحيثون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم ، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن ، ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل ، ومن ثم يرون الملائكة تمثيلاً لقوة الخير والطاعة ، والشياطين تمثيلاً لقوة الشر والمعصية ، والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة .. إلخ ، لأن في مقرراتهم السابقة - قبل أن يواجهوا القرآن - أن هذه التسميات : الملائكة والشياطين أو الجن ، لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية والتأثيرات الواقعية !! ومن أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث ؟

إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره ، وفي التصور الإسلامي وتكوينه ، أن ينفذ الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبنى مقرراته كلها حسماً بصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود ، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن ، ولا ينفى شيئاً يشبه القرآن ولا يثوله ! ولا يثبت شيئاً

ينفيه القرآن أو يطله ، وما عدا الميث والمنفى فى القرآن ، فله أن يقول فى ما يهده إلى عقله وتجربته .

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن ، وهم مع ذلك يقولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة فى عقولهم ، وتصورات سابقة فى أذهانهم لما ينبغى أن تكون عليه حقائق الوجود .

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفى هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شىء منها ، فهم مضحكون حقاً ! فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه ، والتي يستخدمها فى تجاربه ، وهذا لا ينبغى وجودها طبعاً ! فضلاً على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالجهول على طريق المتدينين ، أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريقة العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليست عليه سمة الادعاء ، ولا طابع التطاول على المجهول ، كما يتناول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمى ، ممن ينكرون حقائق الديانات ، وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى ، وهذه السورة من القرآن - كغيرها - تمنحنا جوانب من الحقائق فى هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقى صحيح للوجود وما فيه من قوى وأرواح وحيوانات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا وذواتنا ، وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول ، ومصدره هو القرآن والسنة ، وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير .

وإن هنالك مجالاً للعقل البشرى معيناً فى ارتياد آفاق المجهول : والإسلام يدفعه إلى هذا دفعاً ، ولكن وراء هذا المجال المعين مالا قدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لا حاجة به إلى ارتياده ، ومالا حاجة له به فى خلافة الأرض فلا مجال له إليه ، ولا حكمة فى إعائه عليه ، لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلاً فى حدود اختصاصه ، والقدر الضرورى له منه ليعلم مركزه فى الكون بالقياس

إلى ما حوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته ،
وبالقدر الذى يدخل فى طاقته ، ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين
والروح والمنشأ والمصير .

فأما الذين اهتدوا بهدى الله ، فقد وقفوا فى هذه الأمور عند القدر الذى
كشفه الله لهم فى كتبه وعلى لسان رسله ، وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق ،
وحكمته فى الخلق ، والشعور بموقف الإنسان فى الأرض من هذه العوالم
والأرواح ، وشغلوا طاقاتهم العقلية فى الكشف والعلم المهيأ للعقل فى حدود
هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم ، واستغلوا ما علموه فى
العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ، على هدى من
الله ، متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للانتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى ،
والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المنزلة ، وكان منهم فلاسفة
حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته ، فظلوا يتعثرون كالأطفال الذين
يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم
يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة - وهم كبار
فلاسفة - مضحكة حقاً حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم
الجميل الذى ينشئه القرآن ، مضحكة بعتراتها ، ومضحكة بمفارقاتها ،
ومضحكة بتخلخلها ، ومضحكة بقزائمتها بالقياس إلى عظمة الوجود الذى
يفسرونه بها لا أستثنى من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين
الذين قلدوهم فى منهج التفكير ، ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين
يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامى للوجود .

فهذه فرقة .. فأما الفرقة الأخرى ، فقد بحثت من جدوى هذا الاتجاه
فى المعرفة ، فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها فى العلم التجريبى
والتطبيقات ، ضاربة صفحاً عن المجهول ، الذى ليس إليه من سبيل ، وغير
مهتدية فيه بهدى الله ، لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت
فى أوج غلوها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكنها أخذت

من مطلع هذا القرن تفيق من الغرور العلمى الجامع ، على هروب المادة من بين أيديها وتحويلها إلى شعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون ! وبقي الإسلام ثابتاً على صخرة اليقين ، يمسح البشر من المجهول القدر الذى ضم فيه خير ، ويوفر طاقتهم العقلية للعمل فى خلافة الأرض ، ويهيئ لعقولهم المجال لذى تعمل فيه فى أمن ، ويهديهم للتى هى أقوم فى المجهول وغير المجهول !

طبيعة الجن فى الاستعداد للهدى والضلال

أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ، بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان فى الاستعداد للهدى والضلال ، ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم فى ربهم وقد آمنوا به ، وعن ظنهم بعاقبة من يهتدى ومن يضل :

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

وَمِنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ

اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى

ءَامَنَّا بِهِ ؕ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ

تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان - إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله - وهو تقرير ذو أهمية بالغة فى تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق ، فأغلبنا حتى الدارسين الفقهيين - على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له ، وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة ، وهذا ناشئ من مقررات سابقة فى

تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا ، وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة ١.

وهذا النفر من الجن يقول : ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك .. ﴾ ويصف حالهم بصفة عامة : ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ أى لكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر معتقدهم الخاص بعد إيمانهم : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً .. ﴾

فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه سبحانه والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره ، فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض ، ولا هم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب . وضعف الخلق أمام الخالق ، والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله سبحانه وبينهم نسباً ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرة الله ، وضعفهم وقوة الله ، وانكسارهم وقهر الله ، فيصححون ، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثقة الجن بالله

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى ، وقد قرؤوه من قبل ، ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ .

كما ينبغي لكل من يسمع الهدى ، وهم سمعوا القرآن ، ولكنهم يسمونه هدى كما هي حقيقته ونتيجته ، ثم يقررون ثقتهم في ربهم ، وهي ثقة المؤمن في مولاه :

﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ ..

وهي ثقة المطمئن إلى عدل الله . وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان

وحقيقته ، فالله سبحانه عادل ، ولن يخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته ، والله سبحانه قادر ، فسيحمي عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقاً ، ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة ، ومن ذا الذى يملك أن يخس المؤمن أو يرهقه وهو فى حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ، ولكن هذا ليس هو البخس ، فالعوض عما يُحرّمه منها يمنع عنه البخس ، وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ، لكن هذا ليس هو الرهق ، لأن ربه يدركه بطاقة تحتمل الألم وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهون عليه المشقة فتمحضها لخيره فى الدنيا والآخرة .

المؤمن إذن فى أمان نفسه من البخس ومن الرهق : ﴿ فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ ، وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش فى قلق وتوجس ، حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع ، ولم تغلق على نفسه المنافذ إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر ، ويرجو فرج الله منها فيؤجر ، وهو فى الحالين لم يخف بخساً ولا رهقاً ، ولم يكابد بخساً ولا رهقاً .

وصدق النفر المؤمن من الجن فى تصوير هذه الحقيقة النيرة .

تصور الجن لحقيقة الهدى والضلال

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال ، والجزاء على الهدى والضلال :

﴿ وَأَنَامِنَا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ ﴾ (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۖ (١٥)

والقاسطون : الجائرون المجانبون للعدل والصلاح ، وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقاً يقابل المسمين ، وفى هذا إيماء لطيفة بليغة المدلول ، فالمسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر المفسد .

(١) الجن : ١٤ - ١٥ .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ ، والتعبير بلفظ : « تحروا » يوحي بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة في طلب الرشد والاهتداء - ضد الغي والضلال - ومعناه تحرى الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبين ووضوح ، وليس هو خبط عشواء ولا انسياقاً بغير إدراك ، ومعناه أنهم وصلوا فعلاً إلى الصواب حين اختاروا الإسلام ، وهو معنى دقيق وجميل .

﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ ، أى تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطباً لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالحطب ..

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار ، ومفهومه أنهم كذلك ينعمون بالجنة ، هكذا يوحي النص القرآنى ، وهو الذى نستمد منه تصورنا ، فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئاً يستند فيه إلى تصور غير قرآنى ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة ، فسيكون ما قاله الله حقاً بلا جدال ! .

وما ينطبق على الجن مما يتيثوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحي بلسان نبيهم .

مقالة الجن عن فعل الله مع الذين يستقيمون

والى هنا كان الوحي يحكى قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ، ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لا بألفاظها :

﴿ وَالْوَّاسِقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴾ لَنَفْسِنَهُمْ

فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ^(١) .

يقول الله سبحانه إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفوراً نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء ﴿ لَنَفْسِنَهُمْ فِيهِ ﴾ ونبتلهم أيشكرون أم يكفرون .

(١) الجن : ١٦ - ١٧ .

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قوهم في هذه النقطة ، يزيد مدلولها تأكيداً بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه ، ومثل هذه اللفظات كثير في الأسلوب القرآني ، لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفظة تحتوى جملة حقائق ، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها .

والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ، وأول أسبابه توافر الماء واغذوداقه ، وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة ، وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي إنتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء ، ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية .

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء واتمكين في الأرض حقيقة قائمة ، وقد كان العرب في حوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتدفق فيها الأرزاق ، ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً ، وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيثوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله . وإذا كانت هناك أمة لا تستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفرة والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، يتسلب عن ذلك الغنى والوفرة معنى الرخاء ، وتحيل الحياة فيها لعنة مشئومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته .

والحقيقة الثانية : التي تنبثق من نص هذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى ، فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتناسكون لها ، يحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ، ومن

ذكر الله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره ، فأما الرخاء فينسى ويلهى ، ويرى الأعضاء وينسى عناصر المقاومة في النفس ، ويهين الفرصة للغرور بالنعمة والاستئمان للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى بقظة دائمة تعصم من الفتنة ..
نعمة المال والرزق كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة ، ونعمة القوة كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمان الله ، ونعمة الجمال كثيراً ما تقود إلى فتنة الخيلاء والتبعية وتردى في مدراك الإثم والفجوة ، ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين ، وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله .

والحقيقة الثالثة : أن الإعراض عن ذكر الله ، الذي قد تنتهى إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله ، والبص يذكر صفة للعذاب ﴿ يسلكه عذاباً صعداً ﴾ توحى بالمشقة من كان الذى يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد ، وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد ، فجاء في موضع : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ (١) .. وجاء في موضع : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ (٢) ، وهى حقيقة مادية معروفة ، والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !.

والآية الثالثة في السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (٣) ..

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهى تأكيد لما سبق من قولهم : ﴿ ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ في موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود ، وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهى توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يبيىء في موضعه على طريقة القرآن ..

(١) الأنعام : ١٢٥ . (٢) المدثر : ١٧ . (٣) الجن : ١٨ .

حال الجن حين اجتماعهم على الرسل

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ ﴾^(١).

أى متجمعين متكئين عليه ، حين قام يصلى ويدعو ربه والصلاة معناها في الأصل الدعاء .

فإذا كانت من مقولات الجن ، فهي حكاية منهم عن مشركى العرب ، الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله (ﷺ) وهو يصلى أو وهو يتلو القرآن كما قال فى سورة المعارج : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مَهْطَعِينَ ۚ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾^(٢) ، يتسمعون فى دهش ولا يستجيبون ، أو وهم يتجمعون لإيقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مراراً ، ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !.

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سَمِعُوا القرآن .. العجب .. فَأَخَذُوا وَدُهِشُوا ، وتكأكأوا على رسول الله (ﷺ) بعضهم لصق بعض ، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها ، بعضه لصق بعض ! ولعل هذا هو الأقرب للدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياح والوهلة البادية فى مقالة الجن كلها ، والله أعلم .

طبيعة الإنسان وطبيعة الجان

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ۖ

مِنْ صَلَاسَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَّارِ

السَّمُومِ ۖ ﴾^(٣).

(١) الجن : ١٩ . (٢) المعارج : ٣٦ - ٣٧ . (٣) الحجر : ٢٦ - ٢٧ .

يُقرَّر - سبحانه - اختلاف الطبيعتين بين الصلصال - وهو الطين اليابس الذى يصلصل عند نقره ، المتخذ من الطين الرطب الآسن - والنار الموسومة بأنها شعواء مسامة - نار السموم - وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله ، أما طبيعة الجان فبقيت من نار السموم .

فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان ؟ فهو مالا ندرى كيفيته ، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال .

وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى في هذه القضية ، وبخاصة قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾^(١) وقوله : ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾^(٢) أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ، ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدى وتركيب الأحياء أجمعين ، وأن هنالك أطواراً بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة « سلالة » ، وإلى هنا وتنتهى دلالة النصوص ، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التحمل ليس القرآن في حاجة إليه ، وللبحث العلمى أن يمحضى في طريقه بوسائله الميسرة له ، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات ، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلاً مضمونة ، ويبدل منها مالا يثبت على البحث والتحصيل ، غير متعارض في آية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التى تضمنها القرآن ، وهى ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبها على وجه اليقين .

فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً ، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً ؟ فهنا السر الذى يعجز عن تعليله البشر أجمعون ، وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه ، فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً ، تفوقاً حاسماً فاصلاً منذ بدء ظهور الإنسان ، فأما هذا السر فما تزال النظريات تخط حوله ولا

(١) المؤمنون : ١٢ . (٢) السجدة : ٧ - ٨ .

تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أى كائن قبله ، مما يزعم بعضها أن الإنسان « تطور » عنه ، كما أنها لا تملك نفى الاحتمال الآخر : وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء - وإن كان بعضها أرق من بعض - ثم نشأة هذا الإنسان متفرداً منذ البدء أيضاً والقرآن الكريم يُفسّر لنا ذلك التفرد ، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي .. ﴾^(١)

فهى روح الله تنقل هذا التكوين العضوى الوضيع إلى ذلك الأفق الإنسانى الكريم ، منذ بدء التكوين ، وتجعله ذلك الخلق المتفرد الذى توكل إليه الخلافة فى الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين .
كيف ؟ ..

ومتى كان فى نطاق هذا المخلوق الإنسانى أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم ؟

وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التى نستوى عليها مطمئنين -

لقد كان خلق الشيطان - من قبل - من نار السموم ، فهو سابق إذن للإنسان فى الخلق ، هذا ما نعلمه ، أما كيف هو وكيف كان خلقه ، فذلك شأن آخر ، ليس لنا أن نخوض فيه ، إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم ، ندرك من صفاته التأثير فى عناصر الطين بحكم أنه من النار ، والأذى والمسارة فيه بحكم أنها نار السموم ، ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار ، وهى ليست بعيدة فى التصور عن طبيعة النار !
ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال . ثم من النفخة العلوية التى فرقت بينه وبين سائر الأحياء ، ومنحته خصائصه الإنسانية ، التى أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية ، فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء ، بينما بقيت هى فى مستواها الحيوانى لا تتعداه !

هذه النفخة التى تصله بالملأ الأعلى ، وتجعله أهلاً للاتصال بالله ، وللتلقى

عنه ، ولتجاوز النطاق المادى الذى تتعامل فيه العضلات والحواس ، إلى النطاق التجريدى الذى تتعامل فيه القلوب والعقول ، والتي تمنحه ذلك السر الخفى الذى يسرب به وراء الزمان والمكان ، ووراء طاقة العضلات والحواس ، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة فى بعض الأحيان .

ذلك كله مع ثقله الطين فى طبعه ، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته : من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات ، ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات ، وهذا مع أن هذا الكائن « مركب » لا طبيعة « المخلوط » أو « الممزوج » ، ولا بد من ملاحظة هذه الحقيقة ودقة تصورهما كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التى جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين - إنه لا انفصال بين هذين الأفقين فى تكوينه ، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر فى حالة واحدة من حالاته ، إنه لا يكون طيناً خالصاً فى لحظة ، ولا يكون روحاً خالصاً فى لحظة ، ولا يتصرف تصرفاً واحداً إلا بحكم تركيبه الذى لا يقع فيه الانفصال !

والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذى يطلب إليه أن يبلغه ، وهو الكمال البشرى المقدر له ، فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً ، وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان ، والارتفاع الذى يخل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة ، والحكمة التى من أجلها خلق على هذا النحو الخاص .

والذى يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذى يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة .. كلاهما يخرج على سواء فطرته ، ويريد من نفسه ما لم يردده الخالق له ، وكلاهما يُدمّر نفسه بتدمير ذلك المركب فى كيانها الأصيل ، وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير .

من أجل ذلك أنكر الرسول (ﷺ) على من أراد أن يترهب فلا يقرب النساء ، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر ، ومن أراد أن يقوم الليل فلا

ينام ، أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة رضى الله عنها وقال : « فمن رغب عن سنتي فليس مني »^(١).

وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذاك ، وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر ، إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات ، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف ، ولا اعتداء من إحداها على الأخرى ، فكل اعتداء يقابله تعطيل ، وكل طغيان يقابله تدمير ، والإنسان حفيظ على خصائص فطرته مسئول عنها أمام الله ، والنظام الذى يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التى لم يهبها الله جزافاً للإنسان .

والذى يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية فى الإنسان يدمر كيانه المتفرد ، ومثله الذى يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد فى الله والإيمان بالغيب الذى هو من خصائص الإنسان ، والذى يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية ، كالذى يسلب الناس طعامهم وشرابهم ومطالبهم الحيوية سواء ، وكلاهما عدو « للإنسان » يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان !.

إن الإنسان حيوان وزيادة ، فله مثل مطالب الحيوان ، وله ما يقابل هذه الزيادة ، وليست هذه المطالب دون هذه هى « المطالب الأساسية » كما يزعم أعداء الإنسان من أصحاب المذاهب المادية « العلمية » .

هذه بعض الخواطر التى تطلقها فى النفس حقيقة تكوين الإنسان ، كما

(١) أخرجه الطبرانى ٣٢٠/٢ ، ومثكل الآثار ٨٨/٢ ، والمجمع ٢٥٩/٢ ، و« الكثر » (٥٣٨٣) .

وأخرجه بلفظ : « من رغب عن سنتي فليس مني » البخارى ٢/٧ ، ومسلم (النكاح) ٥ ، والنسائى (النكاح) ب ٤ ، وأحمد ١٥٨/٢ و ٢٤١/٣ و ٢٥٩ و ٢٨٥ و ٤٠٩/٥ ، والدرامى ١٣٣/٢ ، والبيهقى ٧٧/٧ ، و« الدر المنثور » ١٧/٢ و ٣٠٧ ، و« الإتحاف » ٥٤/٥ و ١٦٠ و ٢٨٦ و ٢٩٥/٧ و ٤٠٥/٨ و ٤٠٦ و ٣٥١/٩ ، و« الفقيه والمتفقه » ١٤٤/١ ، و« الترغيب » ٨٧/١ ، و« المعنى عن حمل الأسفار » ٣٤٩/١ و ٢٢/٢ ، و« مثكل الآثار » ١٣٦/٢ ، و« الشفاء » ٣٧/٢ ، والطبرى ٧٠٧ ، والقرطبى ١٩/٢ و ٣٢٨/٩ و ٨٧/١٨ ، وابن خزيمة (١٩٧) والخطيب ٣٣٠/٣ ، و« الحلية » ٢٢٨/٣ ، وابن أبى عاصم ٣١/١ ، وابن كثير ١٦٠/٣ و ٣٨٩/٤ وغيرهم .

يقررها القرآن ، نمر بها سراعاً ، حتى لا نوقف تدفق النص القرآني في عرض مشاهد القصة الكبرى ، راجين أن نعود إليها ببعض التعقيبات في نهايتها :

لقد قال الله للملائكة : ﴿إِنِّي خَلِيقُ بَشَرٍ مِّنْ صَلَاصِلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾

﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾

وقد كان ما قاله الله ، فقوله تعالى إرادة ، وتوجه الإرادة ينشئ الخلق المراد ، ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني ، فالجدل على هذا النحو عبث عقلي ، بل عبث بالعقل ذاته ، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم ، وكل ما ثار من الجدل حول هذا الموضوع وكل ما يثور إن هو إلا جهل بطبيعة العقل البشري وخصائصه وحدوده ، وإقحام له في غير ميدانه ، ليقبس عمل الخالق إلى مدركات الإنسان ، وهو سفه في إنفاق الطاقة العقلية ، وخطأ في المنهج من الأساس ، إنه يقول : كيف يتلبس الخالد بالفاني ، وكيف يتلبس الأزلي بالحادث ؟ ثم ينكر أو يثبت ويعلل ! بينما العقل الإنساني ليس مدعواً أصلاً للفصل في الموضوع ، لأن الله يقول : إن هذا قد كان ، ولا يقول : كيف كان ، فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه ، وكذلك هو لا يملك أن يثبته بتفسير من عنده - غير التسليم بالنص - لأنه لا يملك وسائل الحكم ، فهو حادث ، والحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في ذاته ، ولا على الأزلي في خلقه للحادث ، وتسليم العقل ابتداء بهذه البديهة أو القضية - وهي أن الحادث لا يملك وسائل الحكم على الأزلي في أي صورة من صورته ، يكفي ليكف العقل عن إنفاق طاقته سفهاً في غير مجاله المأمون .

فلنتظر بعد ذلك ماذا كان :

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٣٠) ..

كما هي طبيعة هذا الخلق - الملائكة - الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق .

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ (٣١) ..

(٣) الحجر ٣١ .

(٢) الحجر : ٣٠ .

(١) الحجر : ٢٨ - ٢٩ .

وإبليس خلق آخر غير الملائكة ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهو أفى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، أما الاستثناء هنا فليس على وجهه ، إنما هو كما تقول : حضر بنو فلان إلا أحمد ، وليس منهم ، إنما هو معهم في كل مكان أو ملابسة ، وأما أن الأمر المذكور للملائكة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ فكيف شمل إبليس ! فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده ، وقد ذكر صريحاً في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾^(١) . وأسلوب القرآن يكتفى بالدلالة اللاحقة في كثير من المواضع ، فقول الله تعالى له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ . قاطع في أن الأمر قد صدر له ، وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة ، فقد يصدر إليه معهم لاجتماعهم في ملابسة ما ، وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهويناً لشأنه وإظهاراً للملائكة في الموقف ، ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة ، وهذا ما نختاره .

وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مُسَلِّمَاتٍ غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولاكيفياتها في غير حدود النصوص ، لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال .

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۚ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾^(٢) .

وصرحت طبيعة الفرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم ، وذكر إبليس الصلصال والحما ، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلبس هذا الطين ، وتشاغل برأسه المفرور يقول : إنه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ! .

وكان ما ينبغي أن يكون : ﴿ قَالَ

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ

الدِّينِ ﴾^(٣) .

(١) الأعراف : ١٢ . (٢) الحجر : ٣٢ - ٣٣ . (٣) الحجر : ٣٤ - ٣٥ .

عندئذ تبدى خليفة الحقد وخليفة الشر :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ..

لقد طلب النظرة إلى يوم البعث ، لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ، ولا ليتوب إلى الله ويرجع وَيُكَفِّرَ عَنْ إِثْمِهِ الْجَسِيمِ ، ولكن لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده ، يربط لعنة الله له بآدم ، ولا يربطها بعصيانه لله في تبجح نكير ! .
وكانت وما زالت المعركة ..

إن قصة البشرية الكبرى تستحق تعقيبات مفصلة لا غملك أن نستطرد فيها - في ظلال القرآن - فنكتفى أن نلم بها إلاماً ، وعلى أية حال ، فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام ، وفي نشأة الجنس البشري ، ترجع أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة ، كان مصاحباً لخلقه ، وأن الترقى « الإنسانى » كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ، ونموها ، وتدريبها ، واكتسابها إلى الإنسان . كما تقول الداروينية .

إن الزعم بأن الإنسان مجرد حيوان متطور عن حيوان ! هى التى جعلت الإعلان الماركسى يذكر أن مطالب الإنسان الأساسية هى الطعام والشراب والسكن والجنس ! فهذه فعلاً هم مطالب الحيوان الأساسية ! ولا يكون الإنسان فى وضع أحقر مما يكون وفق هذه النظرة ! ومن ثم تهدر كل حقوقه المترتبة على تفرده عن الحيوان بخصائصه الإنسانية . تهدر حقوقه فى الاعتقاد الدينى ، وفى حرية الفكر والرأى وفى اختيار نوع العمل ومكان الإقامة .. إلخ .

فإما النظرة الإسلامية إلى الإنسان وهى تقوم على أساس تفرده بخصائصه الإنسانية إلى جانب ما يشارك فيه الحيوان من التكوين العضوى .

امتنان الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء

إن سورة الرحمن كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ، إعلان ينطلق من المبدأ الأعلى فتجاوب به أرجاء الوجود ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود ..

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن وخلق الإنسان ، وتعليمه البيان ، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان ، ورفع السماء ووضع الميزان ، ووضع الأرض للأنام ، وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان .. عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، في مواجهة الكون وأهل الكون : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، وهو سؤال للتسجيل والإشهاد ، فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن في مثل هذا المقام ..

ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله في الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه في ذوات أنفسهما ، وفي خاصة وجودهما وإنشائهما :

﴿ خَلَقَ

الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝۱۴ وَخَلَقَ الْجَانَّ

مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ۝۱۵ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (١) ..

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة ، والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة لا تقاس أبعادها بأي مقياس مما يألفه البشر ، فجميع المقاييس التي في أيدي البشر أو التي تدركها عقولهم ، هي مقاييس للفارق بين موجود وموجود ، أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقاييسه مقاييس المخلوقات ! .

فحين يَمْتَنُّ الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ، فإنما يمتن عليهما بالنعمة التي تفوق حد الإدراك .

(١) الرحمن : ١٤ - ١٦ .

ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهى كذلك من خلق الله ، والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه ، وقد تكون هذه حلقة فى سلسلة النشأة من الطين أو من التراب ، كما أنها قد تكون تعبيراً عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض فى عناصر التكوين .

وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوى من العناصر ما تحويه الأرض ، فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم ، وهذه نفسها هى العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها فى الإنسان عن التراب ، وفى إنسان عن آخر ، إلا أن أصنافها واحدة .

إلا أن هذا الذى أثبته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمى للنص القرآنى ، فقد تكون الحقيقة القرآنية تعنى هذا الذى أثبته العلم ، أو تعنى شيئاً آخر سواه ، وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التى يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال .

والذى ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآنى على كشف علمى بشرى ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة ، فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية - تجريبية أو افتراضية - بنية بيان ما فى القرآن من إعجاز ، فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها ، ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها فى نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب من الأساس ! وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية فى تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها فى تصورنا كلما أطلعنا العلم على شىء مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله فى الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآنى على أن مدلوله هو هذا الذى كشفه

العلم ، إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه .

فأما خلق الجن من مارج من نار ، فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية ، والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن ، خبر الله الصادق ، الذى خلق وهو أعلم بمن خلق .. المارج : المشتعل باللسنة النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة فى هذه الأرض مع الإنس ، ولكننا لا ندري كيف يعيش الجن وقبيله ، فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ... ﴾ ، وكما هو الحال هنا فى سورة الرحمن .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرهما بنعمة الوجود ، كل من الأصل الذى نشأه الله منه ، وهى النعمة التى تقوم عليها سائر النعم ، ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ولا تكذيب فى هذا المقام المشهود !.

تهديد فيه وعيد للجن والإنس

قال تعالى :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ (٣١) فَبِأَيِّ

ءِ الْآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) يَمَعْشَرُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ

أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ

إِلَّا بِإِذْنِ إِبْرَاهِيمَ (٣٣) فَبِأَيِّ ءِ الْآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

شُوَاطِدَ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ ءِ الْآلَاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (٣٦) .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ .. ياللهول المرعب المزلزل ، الذى لا يثبت له إنس ولا جان ، ولا تقف له الجبال الرواسى ولا النجوم والأفلاك !

(١) الرحمن : ٣١ - ٣٦ .

الله جل جلاله ، الله القوى القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال ، الله سبحانه يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، في وعيد وانتقام ! .

إنه أمر ، إنه هول ، إنه فوق كل تصور واحتمال ! .

والله سبحانه ليس مشغولاً فيفرغ ، وإنما هو تقرب الأمر للتصور البشرى ، وإيقاع الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورهما سحقاً ، فهذا الوجود كله نشأ بكلمة ، كلمة واحدة ، كن فيكون ، وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح البصر .. فكيف يكون حال الثقلين ، والله يفرغ لهما وحدهما ليتولاهما بالانتقام ؟ .

وفي ظل هذا الهول الرعب يسأل الثقلين المسكينين : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ! .

ثم يمضى الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحداهما أن ينفذا من أقطار السموات والأرض : ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ ، وكيف ؟ وأين ؟ ﴿ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان .

ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ وهل بقي في كيانهما شيء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟

ولكن الجملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعب يلاحقهما والمصير المردى يتمثل لهما : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ .

المجرمون من الجن والإنس معروفون من غير سؤال

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ

﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ

إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٣١﴾

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر ، مشهد الانقلاب الكوني يوم القيامة ، وما يعقبه من مشاهد الحساب ، ومشاهد العذاب والثواب .

ويبدأ استعراض المشاهد بمشهد كوني يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكوني :

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ .

وردة حمراء ، سائلة كالدهن ، ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها ، منها هذه الآية ، ومنها ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ (١) . ومنها : ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ (٢) ، ومنها : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ . وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ (٣) ، ومنها : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ (٤) ، ومنها : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذْنَتْ لَرَبِّهَا وَخُفَّتْ . وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . وَأَذْنَتْ لَرَبِّهَا وَخُفَّتْ ﴾ (٥) ، وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله ، ولا يعلم حقيقته إلا الله .

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ، ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، ولا تكذيب عندئذ ولا نكران .

(١) الرحمن : ٣٧ - ٤١ . (٢) الواقعة : ٤ - ٦ . (٣) القيامة : ٧
(٤) التكوير : ١ - ٦ . (٥) الانفطار : ١ - ٣ . (٦) الانشقاق : ١ - ٥

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسَأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ ، وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود ، الذي ستكون فيه مواقف شتى ، منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها مالا يسألون فيه عن شيء ، ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقى به التبعة على شركائها ، ومنها مالا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد ، وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ، ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله ، وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه ، ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ !

﴿ يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ ،

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان ، حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار فهل حينذاك من تكذيب أو نكران ؟ .

إثبات نكاح الجنى للإنسى

قال تعالى :

﴿ فَمِنْ قَصَرَاتِ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (١) ...

فهن عفيفات الشعور والنظر ، لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسسهن إنس ولا جن .

وقال تعالى :

﴿ حُورٌ

مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ (٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٢﴾

لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٣) ..

(١) الرحمن : ٥٦ . (٢) الرحمن : ٧٢ - ٧٤ .

فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك في الصون والعفاف .

الاستعاذة من وسوسة الجن والناس

قال تعالى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ 》 .

الاستعاذة في هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

والاستعاذة بالرب ، الملك ، الإله ، تستحضر من صفات الله سبحانه ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المرنى والموجه والراعى والحامى ، والملك هو المالك الحاكم المتصرف ، والإله هو المستعلى المستولى المتسلط .. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذى يتدسس إلى الصدور ، وهى لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شئ ، وملك كل شئ ، وإله كل شئ ، ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العباد والاحتفاء .

والله برحمة منه يوجه رسوله (ﷺ) وأُمته إلى العباد به والالتجاء إليه ، مع استحضار معانى صفاته هذه ، من شر خفى الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بصون من الرب المالك الإله ، فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتهم من حيث لا يحتسبون ، والوسوسة : الصوت الخفى ، والخنوس : الاختباء والرجوع ، والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس .

(١) سورة الناس : ١ - ٦ .

وقد أطلق النص الصفة أولاً : ﴿الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ﴾ ، وحدد عمله : ﴿الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ، ثم حدد ماهيته : ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ، وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ، وإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره ، تأهباً لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف - بعد هذا التشويق والإيقاظ - أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً ، وأنه هو الجِنَّة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين ، النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقد عرفت المكنم والمدخل والطريق !

ووسوسة الجِنَّة نحن لا ندري كيف تتم ، ولكننا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة ، ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ، وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنشق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً ، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة ، فقد جعل له من الإيمان جُنّة ، وجعل له من الذكر عدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحاً ، فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملولم !

عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ﷺ) : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » (١).

وأما وسوسة الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير ، ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين !

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس ، لأنه الرفيق المأمون !
وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض ، مهلكاً للحرث والنسل ! .

والتمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه .

(١) أخرجه في «مشكاة المصابيح» ، (٢٢٨١) ، والقرطبي ٢٠/٢٦٢ وقد ذكره في «الفضائل» ،

٤٠١١/٦ ونسبه للبغاري معلقاً ، وقد بحث عنه ولم أجده .

وبائع الشهوات الذى يتدسس من منافذ الغريزة فى إغراء لا تدفعه إلا
بقطة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحاييل ويخفونها ،
ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التى يعرفونها أو يتحسسونها وهم شر
من الجنة وأخفى منهم ديباً ! .

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدلله الله على عدته
وجنته وسلاحه فى المعركة الرهيبة ! .

وهناك لفظة ذات مغزى فى وصف الوسواس بأنه « الخناس » فهذه الصفة
تدل من جهة على تخفية واختبائه حتى يجد الفرصة سائحة فيدب ويوسوس ،
ولكنها من جهة أخرى توحى بضعفه أمام من يستيقظ لمكره ، ويحمى مداخل
صدره ، فهو - سواء كان من الجنة أم كان من الناس - إذا ووجه خنس ،
وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى ، أو كما قال الرسول الكريم فى تمثيله المصور
الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وهذه اللفظة تقوى القلب على مواجهة الوسواس ، فهو خناس ، ضعيف
أمام عدة المؤمن فى المعركة .

ولكنها - من ناحية أخرى - معركة طويلة لا تنتهى أبداً ، فهو أبداً قابع
خانس ، مترقب للغفلة ، واليقظة مرة لا تغنى عن اليقظات ، والحرب سجال
إلى يوم القيامة ، كما صورها القرآن الكريم فى مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة
العجيبة فى سورة الإسراء :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ نَكَ هَذَا الَّذِى
كَرَّمْتُ عَلَىٰ لَيْنٍ أَخْرَتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْطَعَتْ

مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
 فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
 غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَتَشْتَكَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
 بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾.

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوباً على أمره فيها ، فإن ربه ومَلِكُهُ وإلهه مسيطر على الخلق كله ، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته ، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم ، فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية ، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها ، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها ، يستند إلى الرب الملك الإله ، والشر يستند إلى وسواس خاس ، يضعف عن المواجهة ، ويخس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله . وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر ، كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة .

سورة الفلق وسورة الناس حصن حصين

سورة الفلق وسورة الناس توجيه من الله سبحانه وتعالى لنبيه (ﷺ) ابتداءً وللمؤمنين من بعده جميعاً ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل ، وكأنما يفتح الله سبحانه لهم حماه ، ويسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا ، تعالوا إلى الحمى ، تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمثون فيه ، تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا .. هنا الأمن والطمأنينة والسلام .

وفى قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار ، تتفق كلها مع هذا الظل الذى استروحناه ، والذى يتضح من الآثار المروية أن رسول الله (ﷺ) استروحه فى عمق وفرح وانطلاق :

عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله (ﷺ) : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ؟ » ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾^(١). وعن جابر قال : قال لى رسول الله (ﷺ) : « اقرأ يا جابر » قلت : ماذا بأبى أنت وأمى ؟ قال : « اقرأ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » فقرأتها ، فقال : « اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلها »^(٢).

وعن عائشة ، أن النبى (ﷺ) كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما : « قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٣).



(١) أخرجه مسلم (صلاة المسافرين) ٢٦٤ ، و مشكاة المصابيح (٢١٣١) و شرح السنة ، ٤٨٠/٤ ، وابن كثير ٥٥٠/٨ ، والبيهقى ٣٢٩/٧ ، وأحمد ١٥١/٤ ، و تاريخ أصفهان ، ٢٦١/١ ، و الظلال ، ٤٠٠٦/٦ ونسبه لمالك والترمذى وأبو داود والنسائى .

(٢) أخرجه النسائى ٢٥٢/٨ و ٢٥٤ ، وأحمد ١٤٩/٤ و ١٥١ ، و موارد الطمان ، (١٧٧٨) ، وابن كثير ٥٥١/٨ و ٥٥٣ ، و مشكل الآثار ، ٣٦/١ ، و الدر المنثور ، ٤١٦/٦ و ٤١٧ ، و الكنز (٢٧٤٤) ، و الظلال ، ٤٠٠٩/٦ .

(٣) أخرجه البخارى ٢٣٣/٦ ، وأبو داود (٥٠٥٦) ، والترمذى (٣٤٠٢) و الدر المنثور ، ٤١٥/٦ ، والبيهقى ٣٥٦/٧ ، و شرح السنة ، ٤٧٨/٤ ، وابن السنى (٦٩١) ، و فتح البارى ، ٦٢/٩ ، و الكلم الطيب (٣٠) ، وابن كثير ٥٤٦/٨ ، و الظلال ، ٤٠٠٩/٦ .

خاتمة

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

اعلم أن وجود الجن ثابت بطرق كثيرة غير دلالة الكتاب والسنة ، فإن من الناس من رآهم ، وفيهم من رأى من رآهم ، وثبت ذلك عنده بالخبر واليقين .

ومن الناس من كلمهم وكلموه ، ومن الناس من يأمرهم وينهاهم ويتصرف فيهم : وهذا يكون للصالحين وغير الصالحين ، ولو ذكرت ما جرى لى ولأصحابى معهم لطال الخطاب ..

وكذلك ما جرى لغيرنا ، لكن الاعتماد على الأجوبة العلمية يكون على ما يشترك الناس فى علمه ، لا يكون بما يختص بعلمه المجيب ، إلا أن يكون الجواب لمن يصدقه فيما يخبر به .

والجان المؤمنين مأمورون بأعمال زائدة على التصديق ، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب ، فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإتباعهم ليسوا مماثلين للإنس فى الحد والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس فى الحد ، لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ، وهذا مالم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين .

وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار ، كما يدخلها من الآدميين ، لكن تنازعوا فى أهل الإيمان منهم ، فذهب الجمهور من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى يوسف ومحمد : إلى أنهم يدخلون الجنة ، وروى فى حديث رواه الطبرانى ، أنهم يكونون فى ربض الجنة ، يراهم الإنس من حيث لا يرونهم .

وذهب طائفة منهم أبو حنيفة - فيما نقل عنه - إلى أن المطيعين منهم يصيرون تراباً كالبهائم ، ويكون ثوابهم النجاة من النار . وهل فيهم رسل أم ليس فيهم (لأنذر ؟ على قولين :

فقل : فيهم رسل لقوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإنس ألم يأتيكم رسل منكم .. ﴾ (١).

وقيل : الرسل من الإنس ، والجن فيهم النذر ، وهذا أشهر ، فإنه أخبر عنهم باتباع دين محمد (ﷺ) ، وأنهم ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴿ (١) ... قالوا : وقوله : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ (٢) . كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ (٣) .. وإنما يخرج من المالح .. وكقوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ (٤) . والقمر في واحدة ..

وأما التكليف بالأمر والنهي والتحليل والتحريم : فدلالته كثيرة ، مثل ما في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي (ﷺ) : «أتاني داعي الجن ، فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، فانطلقوا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم ، أوفر ما يكون ، وكل بغرة علف لدوابكم ، فقال النبي (ﷺ) : لا تستنجوا بالعظم والروث » (٥) . وذلك لئلا يفسد عليهم طعامهم وعلفهم ، وهذا يبين إنما أباح لهم من ذلك ما ذكر اسم الله عليه دون ما لم يذكر اسم الله عليه .

وقال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ - إلى قوله : ﴿ إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ (٦) .. فأخبر عن الشيطان أنه يخاف الله ، والعقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور وليس هو هنا التصديق ..

وأيضاً فإبليس الذي هو أبو الجن ، لم تكن معصيته تكذيباً ، فإن الله أمره بالسجود ، وقد علم أن الله أمره ، ولم يكن بينه وبين الله رسول يكذبه ، ولما امتنع عن السجود لآثم عاقبه الله العقوبة البليغة ، ولهذا قال النبي (ﷺ) : « إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكي » (٧) ..

وقد قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام : ﴿ وسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر .. ﴾ إلى قوله : ﴿ عذاب السعير ﴾ (٨) ... وقد جعل في ذلك ما أمرهم به من طاعة سليمان عليه السلام ، وقد قال تعالى عن إبليس : إنه عصى ولم يقل كذب ، وقد قال تعالى عن الجن : ﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً

(١) الأحقاف : ٢٩ - ٣٠ . (٢) الأنعام : ١٣٠ . (٣) الرحمن : ٢٢ .

(٤) نوح : ١٦ .

(٥) أخرجه مسلم (الصلاة) ١٥٠ ، والترمذي (٣٢٥٨) ، واليهي ١١/١

و ١٠٩ .

(٦) الأنفال : ٤٨ . (٧) انظر : « مجمع الزوائد » ٢٨٤/٢ .

(٨) سبأ : ١٢ .

أنزل من بعد موسى ﴿... إلى قوله : ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾^(١)... فأمرُوا بإجابة داعي الله ، الذي هو الرسول ، والإجابة والاستجابة هي طاعة الأمر والنهي ، وهي العبادة التي خلق لها الثقلان ، كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإِنس إلا ليعبدون ﴾^(٢)..

ومن قال إن العبادة هي المعرفة الفطرية الموجودة فيها ، وأن ذلك هو الإيمان وهو داخل في الثقلين فقط : فإن ذلك لو كان كذلك لم يكن في الثقلين كافر ، والله أخبر بكفر إبليس وغيره من الجن والإِنس ، وقد قال تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٣).. وأخبر أنه يملؤها منه ومن أتباعه وهذا يبين أنه لا يدخلها إلا من اتبعه ، فَعَلِمَ أَنَّ من يدخلها من الكفار والفساق من أتباع إبليس ، ومعلوم أن الكفار ليسوا بمؤمنين ، ولا عارفين الله معرفة يكونون بها مؤمنين .

ولكن اللام لبيان الجملة الشرعية ، المتعلقة بالإرادة الشرعية ، كما في قوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾^(٤).. وقوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم .. ﴾^(٥)..

وقد تكون لبيان العاقبة الكونية كما في قوله : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾^(٦).. وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ﴾^(٧).. أي خلق قوما للاختلاف ، وقوما للرحمة . وقال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإِنس ﴾^(٨).. فاللام في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإِنس إلا ليعبدون ﴾^(٩).. وإن كانت هي اللام في هذه الآية فإن مدلولها لام إرادة الفاعل ومقصوده ، ولهذا تنقسم في كتاب الله إلى إرادة دينية ، وإرادة كونية ، كما تنقسم في كتاب الله تعالى الكلمات ، والأمر والحكم والقضاء ، والتحريم والإِذن ، وغير ذلك .

وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ يامعشر الجن والإِنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـذَا ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾^(١٠).. فبين أن الثقلين جميعاً تلت عليهم الرسل آيات الله ، ولهذا لما قرأ رسول الله ﷺ سورة على

(١) الأحقاف : ٣٢ . (٢) الذاريات : ٥٦ .

(٣) ص : ٨٥ . (٤) البقرة : ١٨٥ . (٥) النساء : ٢٦ .

(٦) الأنعام : ١٢٥ . (٧) هود : ١١٨ - ١١٩ . (٨) الأعراف : ١٧٩ .

(٩) الذاريات : ٥٦ .

(١٠) الأنعام : ١٣٠ .

الصحابه قال : ، للجن كانوا أحسن جواباً منكم .. (١) .. دعاهم إلى طاعة الله لما فيه من الأمر والنهى ، لا إلى مجرد حديث لا طاعة معه ، فإن مثل هذا التصديق . كان مع إبليس ، فلم يُغْنِ عنه من الله شيئاً .

والدلائل الدالة على هذا الأصل ، وما فى الحديث والآثار ، من كون الجن يحجون ويصلون ويجاهدون ، وأنهم يعاقبون على الذنب : كثيرة جداً .

وقد قال تعالى فيما أخبر عنهم : ﴿ وأنا مña الصالحون ومña دون ذلك كنا طرائق قنءاً ﴾ (٢) .. قالوا : مذاهب شتى مسلمين ويهود ونصارى وشيعة وسنة .

فأخبر أن منهم الصالحون ، ومنهم دون الصالحين ، فيكون : إما مطيعاً فى ذلك فيكون مؤمناً ، وإما عاصياً فى ذلك فيكون كافراً ، ولا ينقسم مؤمن إلى صالح وإلى غير صالح ، فإن غير الصالح لا يعتقد صلاحه لترك الطاعات ، فالصالح هو القائم بما وجب عليه ، ودون الصالح لابد أن يكون عاصياً فى بعض ما أمر به ، وهو قسم غير الكافر ، فإن الكافر لا يوصف بمثل ذلك ، وهذا يبين أن فيهم من يترك بعض الواجبات والله أعلم .

أما عبادة المشركين للجن والذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان :

قوم نوح ، وقوم إبراهيم : فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور الصالحين ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .. وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر ..

وكل من هؤلاء يعبدون الجن ، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا فى الحقيقة إنما يعبدون الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿ (٣) ..

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » ٢٣٢/٢ ، وأبو داود فى « مسائل الإمام أحمد

ابن حبل » (٢٩٦) ، وابن أبى الدنيا فى « الشكر » (٣٧) ، وابن كثير ٢٨٥/٧ والقرطبى ١٥٨/١٧ .

(٢) الجن : ١١ . (٣) مآ : ٤٠ - ٤١ .

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا فى المحيا ولا فى الممات ولا يرضون بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم فى صور الآدميين فيرونهم بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم .. أنا المسيح .. أنا محمد .. أنا الخضر .. أنا أبو بكر .. أنا عمر .. أنا عثمان .. أنا علي .. أنا الشيخ فلان . وقد يقول بعضهم عن بعض : هذا هو النبی فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم جثاً يشهد بعضهم لبعض ، والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم العاصي وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيخاً فيتزيا فى صورته ويقول : أنا فلان ، ويكون ذلك فى بریة ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاماً ويسقيه شراباً أو يده على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة فيظن ذلك الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحى فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته ، وإنما يكون ذلك جنياً ، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان .

وقد قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من بونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴿^(١)﴾ . قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله . وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين ..

ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بنى آدم ، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك ، ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انتشق وخرج منه الميت وكلمه وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبی فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً فى ذلك ..

وفى هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهى كثيرة جداً ، والجاهل يظن أن ذلك الذى رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كلمه هو المقبور أو النبی أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور :

(١) الإسراء : ٥٦ - ٥٧ .

أحدها : أن يقرأ آية الكرسي بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ^(١) في الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلاً صالحاً أو ملكاً أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسي وإنما تضر الشياطين ، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجنى : اقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي ﷺ : صدقك وهو كذوب^(٢)..
ومنها : أن يستعيذ بالله من الشياطين .

ومنها : أن يستعيذ بالعوذ الشرعية ، فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم ، كما جاءت الجن إلى النبي ﷺ بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأناه جبريل بالعوذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروى عن أبي التياح أنه قال : سألت رجل عبد الرحمن بن حبيش وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي ﷺ : كيف صنع رسول الله ﷺ حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدت عليه من الشعاب والأودية ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله ﷺ ، قال : فرعب رسول الله ﷺ فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، قل : قال : ما أقول ؟ قال : قل : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق يطرق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن ، قال : فطفنت نارهم وهزمهم الله عز وجل^(٣)..

فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد ، فكيف من هو دون الأنبياء ؟
فالنبي ﷺ قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد ، وأكثر أحاديث النبي ﷺ في الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء .

(١) ساخ : اخطى .

(٢) أخرجه البخارى ١٤٩/٤ ، وابن خزيمة فى صحيحه (٢٤٢٤) ، والألبانى فى الصحيحة (١٥٢٩) وغيرهم ..

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٤١٩/٣ ، والبيهقى فى الأسماء والمقاتل (٢٥) =

وأما من ابتدع ديناً لم يُشرعوه ، فترك ما أمروا به من عبادة الله
وجده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأمته ، وابتدع القلو في الأنبياء
والصالحين والشرك بهم فإن هذا تتلعب به الشياطين ، قال تعالى : ﴿ إنه
ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على
الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾^(١).. وقال تعالى : ﴿ إنَّ عبادي
ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾^(٢)..
والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق
والعصيان

فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكشف بها ..
وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك ..
وتارة يجلبون له من يريده من الإيس ..
وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب
وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً .
وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد ، فمنهم من
يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه
لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبى ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا
والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال ... إلى غير ذلك كثير ..
وبعد .

فإن سيد قطب رحمه الله قد كتب في الضلال عن الجن وكان من خيرة
من كتب ، فقد بين عبادة مشركي العرب للجن وبيان أسطورة الصلة بين
الله وبين الجن كما بين كيفية استمتاع الجن بالإيس والإنس بالجن كما بين
أن الجن لا تعلم الغيب وتكلم على القرين من الجن وبيان حقيقة وجود الجن
في الاستعداد للهدى والضلال وإثبات نكاح الجنى للإنسى إلى غير ذلك
مما احتواه هذا السفر القيم ، رحم الله الشهيد سيد قطب وكثر في
المسلمين من أمثاله إنه على ما يشاء قدير . والحمد لله رب العالمين .

- و (١٨٤) و (١٨٥) وأبونعيم في دلائل النبوة، ٦٠/١ .

(١) النحل : ٩٩ / ١٠٠ . (٢) الحجر : ٤٢ .

1. The first part of the paper is devoted to a general discussion of the problem of the existence of solutions of the system of equations (1) for arbitrary values of the parameters α and β . It is shown that the system has solutions for all values of the parameters α and β if the function $f(x)$ is continuous and has a bounded derivative.

2. In the second part of the paper the problem of the existence of solutions of the system of equations (1) for arbitrary values of the parameters α and β is solved. It is shown that the system has solutions for all values of the parameters α and β if the function $f(x)$ is continuous and has a bounded derivative.

3. In the third part of the paper the problem of the existence of solutions of the system of equations (1) for arbitrary values of the parameters α and β is solved. It is shown that the system has solutions for all values of the parameters α and β if the function $f(x)$ is continuous and has a bounded derivative.

4. In the fourth part of the paper the problem of the existence of solutions of the system of equations (1) for arbitrary values of the parameters α and β is solved. It is shown that the system has solutions for all values of the parameters α and β if the function $f(x)$ is continuous and has a bounded derivative.

5. In the fifth part of the paper the problem of the existence of solutions of the system of equations (1) for arbitrary values of the parameters α and β is solved. It is shown that the system has solutions for all values of the parameters α and β if the function $f(x)$ is continuous and has a bounded derivative.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
نبذة من حياة سيد قطب رحمه الله	٧
حقيقة وجود الجن في التصور الإسلامي	٩
عبادة مشركي العرب للجن	١٠
أسطورة الصلة بين الله وبين الجن	١٢
شياطين الإنس والجن	١٤
استماع الجن بالإنس والإنس بالجن	٢١
إرسال الرسل للجن والإنس	٢٤
دخول كفر الجن والإنس النار	٢٥
للجن قلوب وعيون وأذان	٢٧
الجن جنود من جنود سليمان	٢٩
قوة الذي عنده علم من الكتاب أقوى من قدرة الجن	٣١
الجن تعمل بين يدي سليمان	٣٣
الجن لا تعلم الغيب	٣٥
عبادة الناس للجن	٣٦
القرين من الجن	٣٧
القرين من الإنس	٤٠
كل كافر يلحق كفره الجن والإنس في النار	٤١
مقالة النفر من الجن	٤٢
روايات حاث استماع الجن للقرآن	٤٦
تدبير الله في استماع الجن لرسول الله (ﷺ)	٤٨
مسارعة الجن لإبذار قومهم	٤٩
سورة الجن وإيقاعها الموسيقى	٥١
التصور الإسلامي عن حقيقة الجن	٥٤
ما اشترك به الجن والإنس	٥٧
تكرار حاث استماع الجن للقرآن	٥٩
موقف الجن من القرآن	٦٣
إيمان الجن بالله	٦٦

٦٧ الجن ليس لهم سلطان على من يعتصم بالله
٦٨ دعوة الجن لقومهم
٦٩ حراسة السماء من استراق الجن السمع
٧٤ طبيعة الجن في الاستعداد للهدى والضلال
٧٥ ثقة الجن بالله
٧٦ تصور الجن لحقيقة الهدى والضلال
٧٧ مقالة الجن عن فعل الله مع الذين يستقيمون
٨٠ حال الجن حين اجتماعهم على الرسل
٨٨ امتنان الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإتياء
٩٠ تهديد فيه وعيد للجن والإنس
٩١ المجرمون من الجن والإنس معروفون من غير سؤال
٩٣ إثبات تكاح الجنسى للإنسى
٩٤ الاستعاذة من وموسة الجن والناس
٩٧ سورة الفلق وسورة الناس حصن حصين
٩٩ خاتمة
١٠٧ الفهرس

١٠٨
١٠٩
١١٠
١١١
١١٢
١١٣
١١٤
١١٥
١١٦
١١٧
١١٨
١١٩
١٢٠
١٢١
١٢٢
١٢٣
١٢٤
١٢٥
١٢٦
١٢٧
١٢٨
١٢٩
١٣٠